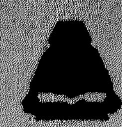
تاريخ المصريين
١٦٣

مصر والحملة الفرنسية

المستشار
محمد سعيد العشماوى



الهيئة المصرية
العامة للكتاب



• تاريخ المصريين

تصدر عن

الهيئة المصرية العامة للكتاب



مصر والحملة الفرنسية

المستشار
محمد سعيد العشماوى



١٩٩٩

الاشراف الفني

محمـود الجـ

تقـــديم

يسرني أن أقدم للقارىء العزيز هذا الكتاب عن « مصر والحملة الفرنسية » الذى كتبه المستشار محمد سعيد العشــماوى • وهو يحمل رؤية تاريخية للثورة الفرنسية أكثر مما يحمل تاريخا للحملة الفرنسيه . فالمستشار محمد سعيد العشماوى مفكر مصرى وليس مؤرخا ، وبالتالى فلا ينبغى للقارىء أن يتوقع قراءة كتاب تاريخ مما تعود أن يقرأه ، بمعنى : تحقيق تاريخى لأحداث الحملة الفرنسية على مصر ــ وانمــا سيقرأ رؤية مفـــكر مصرى وتأملاته للحملة الفرنسية • وهو منهج مختلف للكتابة ، ولكن له حلاوته وأهميته •

والكتـــاب على هذا النحو يتعرض لجوانب وحوادث مختلفة وقعت فى مصر ابان الحملة الفرنسية ، من واقع ما دونه شيخ المؤرخين عبد الرحمن الجبرتى (الذى يعتبر عمدته الرئيسية فى هذا الكتاب) تكون صورة للحياة الاجتماعية ، والحضـــارية ، والادارية ، قبل وأثناء وفى أعقاب الحملة الفرنسية ، مع تحليل ممتاز يربط الماضى بالحاضر ، ويكشف عن الســـلوكيات المصرية الحالية وجذورها البعيدة الضاربة فى التاريخ •

ويقدم الكتاب فى البداية عرضا لمصر قبل الحملة الفرنسية ، والوضع العام فيها ، ووصول الفرنسيين الى القاهرة بعد هزيمة المماليك فى موقعة امبابة ، ثم الترتيبات الادارية والانشاءات العلمية والحضارية التى أسسها الفرنسيون فى مصر • ويتحدث عن ثورة

المصريين على الفرنسيين ، ومحاكمة سليمان الحلبى قاتل الج
كليبر قائد الجيش الفرنسى بعد نابليون • كمـا يتـابع الخط
الفرنسى للمصريين منذ بدأت الحملة الفرنســـية حتى انتهائ
ويتحدث عما أسماه بالثقافة الســمعية أو الثقافة الشــفهية ،
تعتقد بأن القول مساو للعمل ، وأن الكلام بديل عن الفعل ! ا
الثقافة التى ورثها المصريون فى الوقت الحاضر من العصر العثما
مما استخلصه من الجبرتى ، والكتاب بذلك يقدم تحليلا مه
للمجتمع المصرى بنظرة مفكر • وهو جدير بالقراءة •

والله الموفق ••

رئيس التحرير

د• عبد العظيم رمضان

مقـــــدمة

في شهر يناير ١٩٨٦ توجهت الى باريس ، تلبية لدعوة مشتركة فيما بين جامعـة السـوربون ومعهـد الشئون الدولية (Ifri) ، لالقاء محـاضرة في كل منهما • والى جانب المحاضرتين تم ترتيب جدول حافل بالـزيارات والمقـابلات في الـكوليج دى فرانسس (College du France) ، ووزارة الخارجية ، ووزارة العدل ، والمجلس التشريعي ، وبعض المحاكم ، وكبـار الشخصيات الفكرية والعامة • هذا فضلا عن الزيارات السياحية والأنشطة الاجتماعية •

في يوم ١٠ يناير ، كان الترتيب أن أبدأ بزيارة رئيس محـكمة النقض ، ثم أحضر الجمعيـة العـامة لمستشارى محكمة استئناف باريس ، ثم أتناول طعام الغداء مع وزير العدل ورئيس مجلس الدولة •

في العاشرة صبـاحا ، تـوجهت بى السـكرتيرة المسئولة عن مرافقتى وتنفيذ البرامج المعـدة لى ، الى

مكتب رئيس محكمة النقض الفرنسية ، فى مبنى دار العدالة الفخم . وكان الرئيس هى السيدة روز • كما هو المقرر في هذه الزيارات ، كان لدى السيدة روز بيان عن سيرة حياتى ، وعن عملى ، وعن اتجاهاتى الفكرية ، وعن مؤلفاتى ، هو ما يسمى باللغة اللاتينية : Curriclum Vitae ، ويرمز اليه اختصارا بحرفى C.V . •

كانت السيدة روز ودودة ، وشغوفة بالموضوعات الدينية والفكرية التى أكتب فيها ، فدار بيننا حوار طويل ، عميق ومتشعب • عندما عرجنا على العمل القضائى طلبت أن أطلع على جداول المحكمة ، والنظام القضائى والادارى للعمل بها • وكانت دهشتى واضحة عندما تبينت أن النظام القضائى والادارى فى المحاكم المصرية مأخوذ بالنص من النظام الفرنسى : وأن جداولها ، بكل بياناتها ، ترجمة حرفية لجداول المحاكم الفرنسية وبياناتها •

كان هذا التماثل ، بل والتطابق • بين النظام القضائى الفرنسى ، والنظام القضائى المصرى مثار حديث طويل بيننا ، داخلته تعليقات مهمة • وعلى الرغم من أن المدة المحددة للزيارة كانت ساعة واحدة ،

فقد استطالت حتى اقتربت من ساعتين • نظرت السيدة روز الى ساعتها ثم قالت لى : أنت مدعو لحضور الجمعية العامة لمستشارى محكمة استئناف باريس ، وهى تنعقد فى قاعة واسعة بالدور الأرضى من هذا المبنى (دار العدالة) فهل لديك مانع أن نتوجه سويا الى قاعة الاجتماع • لأنى مدعوة كذلك بحكم منصبى ، وقد آزف الوقت وحان موعد وجودنا بالقاعة ؟ رحبت بذلك وسرنا سويا عبر الممرات والأبهاء والسلالم، والى جوارى سكرتيرتى الفرنسية النشطة • عند باب قاعة الاجتماع استأذنت السكرتيرة فى أن تنتظرنى بقاعة خاصة يجلس فيها المرافقون الذين ليس لهم حق حضور الاجتماع • دخلت الى القاعة مع السيدة روز .. التى سارت حتى الصف الأول ، فوجدت وزير العدل ، فعرفتنا ببعضنا ، ثم جلسنا جميعا ، وقد جعلا مجلسى فيما بينهما ، الى يمينى رئيس محكمة النقض والى يسارى وزير العدل • حان موعد انعقاد الجمعية العامة واكتمل حضور المدعوين ، فأغلق الحجاب أبواب القاعة ، وقد كانوا يرتدون أزياء رسمية يتدلى من حزام بها فى الوسط سيف ، ويضعون فى أيديهم قفازات بيضاء • وهو نفس الزى ، والنظام ، الذى كان يرتديه ويتبعه الحجاب فى المحاكم العليا بمصر حتى

أوائل الخمسينيات ، فيما عدا غطاء الرأس الذى كان طربوشا فى مصر ، وهو قبعة خاصة فى فرنسا ٠

بعد دقائق دخل المستشارون الى القاعة ، فى مقدمتهم رئيس المحكمة يتبعه الآخرون بترتيب أقدمياتهم ، وهم جميعا يرتدون أروابا حمراء لها حول الرقبة ياقة عريضة من الفرو الأبيض ، وعددهم اثنى وعشرون مستشارا ، يكونون سبع دوائر ، وللرئيس أعمال قضائية وادارية محددة ٠ جلسوا جميعا فى وضع نصف الدائرة على المنصة التى تعلو مقاعد المدعوين ٠ ألقى رئيس المحكمة كلمة حيا فيها الحضور، وخصنى بالتحية ، ثم تكلم عن عمل المحكمة وما أنجزته فى العام السابق ، وأعلن نظام العمل الذى اتفق عليه أعضاء الجمعية العامة ٠ من التقاليد هناك أن يلقى أحد المستشارين بحثا قانونيا فى مسألة دقيقة وحالة (أى تثور فى دوائر القانون وحلقات المجتمع) فى مدة ١٥ دقيقة ٠ وقف المستشار الذى عهد اليه بالقاء البحث ، وألقاه بنبرة علمية ، ثم وزعت علينا صور منه ، وكان عن التعديلات المطلوب ادخالها على قانون اجارة الأماكن ، ليصبح أكثر ملاءمة للتطورات الاجتماعية والاقتصادية الجديدة ٠

قبل القاء هـذه المحاضرة مال عـلى وزير العـدل وسألني اذا ما كنت أرغب في القـاء كلمـة ، كرجـل قضاء مصرى يحضر ، لأول مرة ، انعقاد الجمعية العامة لمستشارى محكمة استئناف باريس • كان في سـؤاله معنى الايحاء لى بالموافقة ، فوافقت • قام الوزير من مكانه وتقدم الى رئيس محـكمة الاسـتئناف الذى كان يجلس على المنصة قبالتنا ، وهمس اليـه بما اتفقنـا عليه • بعد أن انتهت محـاضرة المستشـار الفـرنسى قدمنى رئيس المحـكمة باسمي وصـفتى القضـائية واتجاهاتى الفكرية ، وأشار الى مؤلفاتى وخص منهـا بالذكر كتابى أصول الشريعة وحصاد العقل ، « وكنت آنذاك قد كتبت أغلب فصول كتابى الاسلام السياسى ، ولم يكن قد نشر بعد ، وهو الكتـاب الذى ترجم الى الفرنسية تحت عنوان موح وقوى التعبير :

LIslamism Contre L'Islam

أى : الأيديولوجيا (الاسـلامية) ضـد الاسـلام (العقيدة) •

وقفت مكانى وارتجلت كلمة كان نص فقراتهـا الأخيرة ما يلى :

« حينمـا وجهت خطابى اليكم ، فقـد كان ذلك بوصفى ابن مصر ، ونبت الانسانية ، ومجلى الكونية •

وهو حال يؤكد نسبتي الى روح مصر . والى كل الانسانية ، والى ذات الكونية ، فلا يجمد مفاهيمي ولا يحتجز أحكامي في نطاق العصبية أو مجال القبلية أو مدار المحلية ، تلك التي تتطرق الى التهويل فيما يتصل بالفرد وبلده ، والى التهوين مما يتعلق بالغير ووطنه . ان ذاتي ، في جوهرها ومظهرها ، تستوى على الحق والعدل والاستقامة ، حادى في ذلك قيم الحضارة المصرية القديمة ، وآية من القرآن الكريم (كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم) سورة النساء ٤ : ١٣٥ .

لقد كان لفرنسا دور مهم وفعال في الكشف عن حضارة مصر القديمة ، لكنها بذلك كانت ترد الدين الى مصر التي أرست بحضارتها كل حضارة ، وأسست بعلومها كل العلوم ، وناسجت بقيمها كل ضمير . وكان لفرنسا أثر واضح على النظام القضائي المصرى ، وكأنها في ذلك تعيد الى مصر الفضل الذى قدمته حضارتها الى الانسانية كلها ، من خلال الحياة المستقيمة بالحق والعدل ، فكرة ومنهجا ، مبدأ وتطبيقا .

ولئن كان من قدرى أن أفيد من كشف حضارة مصر في أفكارى وكتاباتى ، وكان من حظى أن أعمل

فى نظام قضائى عليه بصمات فرنسية ، فانى أكون من ثم تجسيدا حقيقيا للمعلم والتلميذ ، للعاطى والآخذ ، للأجداد والأحفاد ·

فشكرا لموقف جمع فى نفسى كل هذه المعانى الكريمة ، وطرح على روحى كل هذه الومضات السامية » ·

انتهت الجلسة ، وخرجنا من القاعة ، وقد حان موعد الغداء فقال لى وزير العدل : أظن أن لا مانع لديك من أن نتوجه معا فى سيارتى الى المطعم ؟ قلت : لا بأس فى ذلك · ثم التفت الى سكرتيرتى التى جاءتنى على التو ، فور أن شاهدتنى أغادر القاعة ، وطلبت منها أن تحضر بسيارتها الى المطعم فى الساعة الرابعة مساء ، لكن الوزير طلب أن أعفيها من ذلك على أن يترك لى سيارته تذهب بى أنى شئت ·

توجهنا معا الى مطعم عريق وفاخر فى حى مونبارناس (مطعم لا روتونت La Rotonte) · وعلى باب المطعم قابلنا رئيس مجلس الدولة فتعارفنا ، واتجهنا جميعا الى المائدة التى كانت قد حجزت لنا فى منطقة خاصة بالمطعم ·

حضر رئيس الندل (Maitre d'hotel) وقدم الينا قوائم الطعام (Menu) ، فقرأت القائمة وانتظرت حتى يقع اختيار الوزير ورئيس مجلس الدولة على ما يريدان • طلبا مني باحترام شديد أن أملي ما اخترته لطعامي من القائمة على رئيس الندل • ومع أنهما بذلك كانا يتبعان أصول اللياقة الاجتماعية (Etiquette) التي تجعل للضيف الأولية في ابداء طلباته الا أنني أتصور أنهما كانا كذلك يستبران غور الضيف ويتلمسان المعرفة به وتقييمه • ففي الخارج ، وفي أوروبا وأمريكا بالذات ، يوجد اتجاه للتعرف على الضيف من حركاته وسكناته ، من حديثه وألفاظه ، من طريقة الكلام وأسلوب التصرف • وهم لا يرون في الأسلوب الذي يتبعه الفرد في الكلام والطعام ، في نظام السلوك وآداب المائدة ، شكليات أو مظهريات ، لكنهم يرون في ذلك ما يفصح به الشكل عن التربية ، وما يكشف به المظهر عن التكوين ، وما يدل به التصرف عن التحضر •

طلبت من رئيس الندل سومون فيميه (سمك السالمون المدخن) كطبق أول ، ثم فيليه بقرى بالشامبينيون كطبق رئيسي (والشامبنيون هو نبات عش

الغراب ، واسمه بالانجليزية Mashroom) • قال الوزير ورئيس مجلس الدولة معا : هذا هو نظام الطعـــام الكلاسيكي (التقليدى) وسوف نطلب مثلك تماما ، وتم الأمر بذلك • ثم قدم رئيس الندل لكل منا قائمة النبيذ (وتتضمن أنواعا مختلفة من النبيذ الأحمر والوردى والأبيض) • أعدت له القائمة بهدوء ، وقلت : أنا لا أشرب النبيذ • قال المضيفان بأدب جم : وهل يضايقك أن نشرب نحن ، فمن طبيعتنـا وتقـاليدنا أن نشرب النبيذ مع الطعام ؟ قلت : أنا أعرف ذلك ولا اعتراض لى عليه • قالا : اذن وماذا تشرب ؟ قلت : مياها معدنية غير غازية : افيان • قالا : سوف نبـدأ معك بالميـاه المعدنية ونحن نأكل فواتح الشهية (. وهى أنـواع من الزبد والجبن والكافيار ؛ والخبز الصغير المملح والمسمى (كانابيه) Canapé ان وضع عليه الجبن أو الكافيار ، أو Sali ان كان بدونهما ، وينطقـه البعض بالعربيـة ساليه والجمع ساليهات). •

بدأ الندل يضعون أمامنا الأطباق ، بهدوء شديد، وبنظام الموائد التقليدى • وطريقـة الفرنسـيين فى الطعام أن يأكلوا ببطء شديد ، ويطول الحديث الجاد والمتنوع أثناء ذلك ، يحدد مستواه ثقافة الجلساء •

بادرني وزير العدل بسؤال قاله بالانجليزية :

How did you escape the distruction of your totalitarian culture ?

وترجمته : كيف استطعت الافلات من الأثر التدميرى (على الشخصية) لثقافتكم الشمولية ؟ قلت : لقد سئلت هذا السؤال عدة مرات في مصر وفي الولايات المتحدة ، وفي فرنسا . فما الذى تقصده تحديدا بالسؤال ؟ قال : انك تتكلم عن حضارة مصر القديمة باحترام واجلال ، وتتحدث عن كشف الفرنسيين عن هذه الحضارة دون أن تشعر بخجل من ذلك أو عار ، وتشير الى الأثر الفرنسى على النظام القضائى المصرى بوضوح وصراحة لا مرارة فيها ولا تهرب منها !! وهذا الذى شاهدناه فيك وسمعناه منك يختلف تماما عما يحدث من غالبية المصريين ، وخاصة فى الوقت الحالى ، اذ يعرضون عن حضارة مصر القديمة تماما ، ويرون أنها كفر ووثنية ، وأن فى حقيقة اكتشافها واعادة بعثها آثارا سيئة على الدين ، وبالذات على اليهودية والمسيحية والاسلام . كما أن هؤلاء الذين يجحدون فضل الحضارة المصرية القديمة ينكرون وجود بصمة فرنسية على النظام القضائى المصرى، وحتى ان اعترفوا بذلك مكرهين ، فانهم يدعون أن هذه البصمة أساءت

الى القوانين وأضرت بالعدالة ولم تنفع المجتمع ولا خدمت الناس !!

قلت : هذا موضوع طويل ومركب • وأبدأ بأنى لا أعرف تماما كيف حدث أن أفلت من الأثر المدمر للثقافة الشمولية ، لكنى أتصور أن ذلك وقع نتيجة لطبيعتى الخاصة التى طفرت بها الكونية فى بواكير الشباب ، وساعد على ذاك اتجاهاتى المعرفية والثقافية والفنية ، فصيرتنى الى حالة خاصة يحيا فيها الانسان الكونى بالصدق ، ويكون صديقا فيما يفعل ويقول ؛ واذ ذاك يعرف أن الكون كله هو بيته ، وأن الانسانية جمعاء هى أسرته ، وأن الحضارات المختلفة هى اجتهاداته التى يطرق بها أبواب الأبدية ، وأن الحيوات المتباينة هى سعيه المتواصل لكى يطوى الكل فى ذاته •

عندما يصل الانسان الى حال الكونية ذاك ، فانه لا يشعر بأى خجل من قول الحقيقة ، بل يكون الخجل كل الخجل فى انكارها أو تحريفها ، ولا يلحق به عار أو تشينه المعرة من تقدير أعمال الغير ، لأنه يكون بكونيته أسمى وأرفع من الشعور بالدونية الذى يعتمل فى كيان من ترهقه ضآلته أمام أناس آخرين ، أو فى مواقف خاصة ، أو ازاء حقيقة تضع منه وتسفل به •

واذا ما تجاوزنا هذه الوضعية الى حال الكونية ، فان عدم الاعتراف بالحقيقة قد يكون نتيجة لتصرف من يجهل أنه يجهل ، فيعيش بالجهل المركب ، ويفقأ عينيه كى لا يرى الحق ، ويصم أذنيه حتى لا يسمع الصواب، ويبتر لسانه لئلا ينطق بالصدق ٠

ومن يدرس حضارة مصر القديمة ، دراسة واعية مخلصة ، بغير أفكار مسبقة أو أحكام منقولة ، فانه يتأكد أنها حضارة دينية وعلمية وخلقية ، وأن البعض شوهها عن عمد أو عن جهل ، خاصة وقد ظلت خافية على الناس بعد أن ماتت لغتها وغربت معانيها ٠ حتى اذا ما أعاد الفرنسيون اكتشافها ، واستنطقوا كتاباتها، بدأت تظهر معانيها الحقيقية ، وعظمتها الكونية ، وطبيعتها الانسانية ٠ انها أول اجتهادات البشرية ، وأعظم حلقة فى حلقات التاريخ الانسانى ٠ والاقرار بذلك عرفان من الانسان بذاته وسعيه وجهده وهدفه ٠

أما عن أثر النظام القانونى والقضائى الفرنسى على النظام القانونى والقضائى المصرى ، فلا ينكره الا مكابر عليل ، كمن ينكر نور الشمس من رمد أو يجحد عذوبة الماء من مرض ٠ غير أنى أرى أن ذلك الأثر هو تطبيق لقانون الحياة الذى يفرض على كل جيل

أن يساعد الجيل الذى يليه • ففى كتابى «روح العدالة» (١٩٨٢) أثبت بالأدلة القاطعة أن القانون المصرى تأثر بالقانون الفرنسى الذى كان قد تأثر بالقانون الرومانى ، فى حين أن هذا القانون (الرومانى) كان قد تأثر بالفكر المصرى القديم عن العدالة والحق ، بل ونقل كثيرا من معانيها وألفاظها • فالمسألة من ثم تاريخ واحد طويل يتسلسل فى حلقات ، كل منها تفضى الى الأخرى ، وهكذا •

سكت الوزير متأملا بينما قال رئيس مجلس الدولة : ولكن هذا الفهم الذى ذكرته وشرحته هو مقلوب ومعكوس الفكر الشمولى الذى يسود فى منطقتكم ، وخاصة هذه السنوات •

قلت : ان الفكر الشمولى الذى نعيش فيه صار منذ فترة طويلة فكرا أيديولوجيا • وفى الأيديولوجيا لا توجد حقائق بل شعارات ، ولا يوجد تاريخ ، لأنها (الأيديولوجيا) تلغى ما قبلها ، وتنكر ما حولها ، وتغمض عما بعدها ، فتعيش فى حالة من الوهم ، مصطنعة ومفتعلة ، خارج نطاق الزمان والمكان ، وبعيدا عن مجال الحركة الفعالة والمنطق السوى •

قال وزير العدل : عندما يصدر هــذا الكلام من شخص مراقب ، غريب عن منطقتكم ، فانه يكون أمرا مقبولا ، لكن الغرابة أن يصدر منك أنت ، وأنت ابن ثقافة شمولية تفهم وتعمل على الضــد من كل ما تفهم وتقول أنت .

قلت : أعتقد أنى أقول الحق والصدق الذى لابد أن نقوله جميعا .

قال الوزير : هذا بالضبط هو الذى يجعلك مخالفا للنمط العادى والنموذج الشائع فى ثقافتكم الشمولية، وهو ما دعانى الى أن أسألك عن السبب الذى أدى بك الى أن تفلت من أثرها المدمر على الشخصية والعقلية .

أضاف رئيس مجلس الدولة : ثقافتكم الشمولية ، بما تنطوى عليه من أيديولوجية معتقدية ، تؤدى الى انشطار العقل وانكسار القول ، فلا يكون ثم اعتراف بالحقيقة ، ولا يكون القول بالتالى صادقا أو واضحا .

قلت : كما ذكرت من قبل ، لقــد أفلت من الأثر المدمر للثقافة الشمولية بطبيعتى الخاصة ، وثقــافتى الانسانية .

قال الوزير : لكن ذلك يجعلك مغتربا (Alien) في قومك !

قلت : لكنه يجعلنى مقتربا من ذاتى ٠

قال رئيس مجلس الدولة : وهل يغنيك هذا الاقتراب عن ذاك الاغتراب ٠

قلت : هو يغنى عندما يدركه الانسان ويقصده ، ذلك أنه يفضى الى توحد فى الذات ، يجعل المرء فى صميم الكونية وحقيق الانسانية وجميع الصدقية ٠

قال الاثنان معا : لكنها ولابد أن تكون حياة شاقة مرهقة ٠

قلت : على العكس ، انها حياة راقية ممتعة ٠ وهل يمكن أن يوجد أرقى من الحياة فى الكونية ، وأسمى من الوجود بالانسانية ، وأجدى من العيش بالصدقية ؟

قال الوزير : أرى أنك محق فيما تعتقد وفيما تقول ٠

قال رئيس مجلس الدولة : وفى تقديرى أنك سوف تظل على ما أنت عليه ٠

قلت : هذا قرارى الذى إتخذته بنفسي ولنفسى ، خاصة عندما وعيت أثر الطفرة الكونية على طبيعتى ، فصرت أبشر بالانسان الكونى وأقدم نفسى مثلا له ومثالا عليه ٠

قالا معا : نرجو لك التوفيق ، وقد أسعدنا بلا شك لقاؤنا بك وحديثنا معك ٠

كان الوقت قد وصل بنا الى الخامسة مساء ، فشرعنا في الانصراف ، وحياني كل منهما بحرارة ٠

ركبت سيارة الوزير ، وكنت أعتزم التوجه الى غاب بولونيا خارج باريس ، لكنى طلبت من السائق أن يذهب بى الى الفندق ، حيث جلست فى حجرتى ، وحدى ، لكنى أضم فى هذه الوحدة جماع الكونية والانسانية والصدقية ٠ وظللت أردد وأنا أجاهر وأخافت : بماذا ينتفع الانسان اذا كسب العالم كله وخسر نفسه ؟ وماذا يعطى الانسان فداء عن نفسه ؟!



ان عهدى مع الصدقية ، وحياتى بها ، هـو الذى دفعنى الى أن أكتب هذه الدراسة عن « مصر والحملة الفرنسية » ، لعلها تكون سبيلا ، ولو لبعض النـاس ، لكى يعرفوا الحقيقة خالصة ، ويعملوا بها ولها ، مهما أثقلت عليهم ظروف معيشة زائفة ، تنكر الحق وترفض الصدق وتجحد الصواب ٠

القاهرة فى ١٢ ابريل ١٩٩٩



مصر قبل الحملة الفرنسية

التاريخ ، على ما نفهمه حالا (حاليا) ، معنى مستجد ومستحدث من لفظ التاريخ ، ويعنى به تعريف الوقت • وفى كتب اللغة أن أصـــل اللفظ من الارخ ، وهو ولد البقرة الوحشية ، وفى قول آخر أنه ولد البقرة الصغيرة • وفى هذا المعنى قال الشاعر :

مسجد ، لا تزال تهوى اليه

ام آرخ ، قناعها متراخى

وقال أمية بن أبى الصلت (المعاصر للنبى ﷺ) :

تبيت الليل حانية عليـــه

كما (يتقبل) الأرخ الأطوم

ومن الأرخ أخذت العرب معنى التأريخ ، بما يفيد ابتداء الحدث أو الأمر أو الشيء (لســان العرب •• مادة : أرخ) •

وقد تطور معنى اللفظ فصار مما يفيده « جملة الأحداث والأحوال التي يمر بها كائن ما • ويصدق بذلك على الفرد والمجتمع والظواهر الطبيعية ، ونحوها » ، وكذلك ، فهو يعنى العلم الذى يرمى الى تسجيل تلك الأحوال ودراستها (المعجم العربى الأساسى _ لاروس _ مادة : أرخ) •

والتاريخ ، بالمعنى الذى تطور اليه اللفظ ، صار عماد الاستعمال حالا (حاليا) ، يعد فى المفهوم العلمى الصحيح ، أمرا أساسيا ، وضرورة لا معدى عنها ، لفهم حقيقة وطبيعة أى فرد أو مجتمع أو ظاهرة •• فبدون التاريخ يبدو كل من هؤلاء كما اللقيط الذى لا يعرف أبواه ، ومن ثم يمكن أن يقول فيه أى شخص أى شيء • أما بالتاريخ ، فانه يمكن معرفة أصول الشخص ، وأصول وجذور أسباب الأحداث والأحوال ، بصورة أدنى ما تكون الى الصحة وأقرب ما يمكن الى الحقيقة •

ونظرا لأن هذا المفهوم الصحيح هو الذى يؤدى الى فهم ماضى الأمم ، والوعى بحقائق حاضرها ، والتوقع الممكن لما يحتمل أن يحدث فى مستقبلها ، فان دراسة

تاريخ مصر القريب ، يكون ضرورة وواجبا ، حتى نقطع الشكوك التى نضرب فيها ، باليقين الثابت في بطون الكتب ، ولكى ما نبدد الاشاعات التى تنبنى عليها ثقافتنا السمعية الشفاهية بحقيق العلم وصحيح الوقائع ٠

من هذا القصد ، يجرى تقديم عرض للجوانب والحوادث المختلفة التى وقعت في مصر ابان الحملة الفرنسية ، والتى دونها شيخ المؤرخين عبد الرحمن الجبرتى ٠

فلقد غزت السلطنة العثمانية مصر سنة ١٥١٧ وحولتها الى ولاية عثمانية ، يحكمها وال عثمانى معين من قبل السلطنة ، مع بقاء الحكم فى الحقيقة والواقع فى يد المماليك الذين كانوا يجلبون عبيدا من بلاد التركستان وشركسيا والشيشان وغيرها ٠ وكان لهؤلاء المماليك كلمة مسموعة ونافذة الى جانب الوالى ، بل وعليه ٠ ومن أهم هؤلاء المماليك على بك الكبير (١٧٦٨ ـ ١٧٧٣) الذى أعلن الاستقلال ونادى بنفسه سلطانا ٠ وقد أهملت شئون البلاد ومرافقها الكبرى أثناء الحكم العثمانى اهمالا تاما ، حتى أناخ الفقر وضرب الجهل ورزخ الضعف، مما أدى الى سقوط

مصر في يد الجيش الفرنسي بقيادة نابليون بونابرت، فيما يعرف، باسم الحملة الفرنسية (١٧٩٧ ـ ١٨٠١) والتي يحدد الجبرتي فترتها فيقول « فكانت مدة الفرنساوية وتحكمهم بالديار المصرية ثلاث سنوات واحدى وعشرين يوما • فانهم ملكوا بر انبابة والجيزة وكسروا الأمراء المصرية (المماليك) ، يوم السبت ١٩ صفر ١٢١٣ هـ وكان •• انخلاعهم ليلة الجمعة ٢١ صفر ١٢١٦ هـ » صفحة ١٩٩ من الكتاب الآتي بيانه •

عبد الرحمن الجبرتي (١٧٥٤ ـ ١٨٣٥) شيخ المؤرخين ، مصرى ولد بالقاهرة • وتعلم بالأزهر •• وكان والده حسن الجبرتي من شيوخه • شهد وأرخ لمقدم الحملة الفرنسية وأحداثها ، والصراع بين الولاة العثمانيين الذى انتهى بتولية محمد على حكم مصر • وقد أرخ لهذه الأحداث فى كتابيه « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » و « مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس » • وأول الكتابين يعتبر أهم ما يكشف تاريخ مصر فى القرنين ١٨ و ١٩ ، وله بهذه المثابة قيمة عظمى فى بيان تاريخ مصر الاجتماعى والسياسى والحضارى فى تلك الفترة ، وهو الكتاب الذى نعول عليه فى هذه الدراسة (طبعة مصر ١٣٢٢ هـ الجزء

الثالث) ونأخذ منه ونرجع اليه ، خاصة وأن مصنفه الجبرتي ، مصرى أزهرى ، ليس ثمة مطعن على نزاهته ودقته وأحكامه .

وفيما تعرضه الدراسة من هذا الكتاب ، بترتيب وتبويب ، خاص بها ، يبدو أن لغة الكتـــابة فى ذلك العصر كانت قد انحطت شأن كل شيء فى مصر آنذاك ، فضلا عن وجود الفاظ ومصطلحات اختفت من قاموس التعامل المعاصر ، ومن ثم لزم قبـــل أو بعـــد أو أثناء عرض النص المأخوذ من الجبرتي ابداء بعض التعليق أو التصويب ، لجعل هذا النص مقبولا من القـــارىء المعاصر ، مفهوما له قدر الامكان .

وسوف تقدم الدراسة عروضا عامة ، وخاصة ، عن الحياة الاجتماعية ، والحضارية ، والادارية ، قبل وأثناء وإثر الحملة الفرنسية ، على أن يلى ذلك تحليل واف وتعليل كاف ، يعمل على ربط الماضى بالحاضر ، وكشف كثير من التصرفات والسلوكيات المصرية ، ببيان جذورها البعيدة وحدودها القريبة .

الوضع العام فى مصر :

(أ) كان المماليك هم العنصر الفعال فى حكم مصر ، وأظهرهم قبل الحملة الفرنسية اثنان : ابراهيم بك ومراد بك ، بالاضافة الى بعض المماليك ذوى الأهمية ، ولهم يؤرخ الجبرتى فيقول :

« الأمير مراد بك ٠٠٠ هو من مماليك محمد بك أبى الدهب ٠٠٠ اشتراه سنة ١٢٨٢ هـ فأقام فى الرق أياما قليلة عنده (اذ كان رقيقا من قبل) ثم أعتقه ، وأمره ، وأنعم عليه بالاقطاعات الجليلة وقدمه عـلى أقرانه ٠٠٠ ولما مات على بك تزوج بسريته (أى أمته ، أى عبدته) ٠٠ وهى الست نفيسة الشهيرة الذكر بالخير ٠٠٠ كان هو وابراهيم بك أكبر أمراء محمد بك (الذى انفرد بحكم مصر) ٠٠٠ فلما مات محمد بك بعكا ٠٠ رأى مماليكه (أن يكون الأمير لمصر) ابراهيم بك ٠ ورضى الجميع بتقدمه ورياسته لوفور عقله وسكون جأشه ، فاستقر بمشيخة مصر ورياستها ونائب نوابها ووزرائها ٠ وعكف مراد بك على لذاته وشهواته وقضى أكثر وقته خارج المدينة ٠٠٠ كل ذلك مع مشاركته لابراهيم بك فى الأحكام والنقض والابرام » .

والايراد والاصدار (المصروفات) ، وقاسمه الأموال والدواوين وتقليد مماليكه وأتباعه الولايات والمناصب، وأخذ فى بذل الأموال وانفاقها على أمرائه وأتبــاعه ، فانضم اليه بعض أمراء ••• وأخذ الشيء من غير حقه وأعطاه لغير مستحقيه ••• (وقد) أخذ يتحجب عن الناس فعظم فيــه الهــاجس والوســواس • وكان يغلب عليه (هذا) الهاجس والوسواس وكان يغلب عـــلى طبعه الخوف والجبن مع التهور والطيش والتورط فى الاقدام مع عــدم الشــجاعة • ولم يعهــد عليـــه أنه انتصر فى حرب باشره أبدا ، على ما فيــه من الادعاء والغرور والكبر والخيلاء والصلف والظلم والجور •• حظى عنده كل جرىء غشوم عسوف ذميم ظلوم • وتبدلت طباعهم وشرهت نفوسهم وعلت رؤوسهم ••• رجعوا (هو ومماليكه من الصعيد الى القاهرة) من غير عقــد ولا عهد ولا حرب فتعاظم فى نفسه جدا ••• واستخلص غالب بلاد اقليم الجيزة لنفسه شراء ومعاوضة وغصبا ••• وأوقف الأعوان فى كل جهــة يحجزون المــراكب التى تأتى من البلاد ••• يبيعون لأنفســهم ما أحبــوا ويأخذون الجعالات عــلى ما يســمحون به أو يطلقونه لأرباب الوسايط والشفاعات ••• (وقد) بقيت آلات الحرب جميعها والبارود بحــواصله والجلل والبنبــات

(البمب) حتى أخذ جميعه الفرنسيس ... فان اجتمع عليه (شخص قوى) اعطاه ما فى يده او وعده بالخير أو وهبه ملك الغير . فما يشعر الميسور الا ولقمته قد اختطفتهـا النسـور ... ثم اخـذ يبحث . بدواوين الأعشـار والمكوسات والبهـار ويتـابع لممـاليكه ختم الوصـولات فتجاذب هـو وابراهيم بك ذلك الايـراد وتعارضت أوراقهما ... ثم اصطلحا على أن تكون له (مراد بك) الدواوين البحرية ولقسيمه (ابراهيم بك) ما يرد من الأصناف الحجازية وما يضاف الى قلم البهار وحسب ذى دفاتر التجار . فانفرد كل منهما بوظيفته وفعل بها من الاجحاف ما سطر فى صحيفته ... (وقد أخذ مراد بك) أموالا عظيمة من غير حلها ووضعها فى غير محلها ... فياليتها لم تزن ولم تتصدق ... وقد كان من أعظم الأسباب فى خـراب الاقليم المصرى بما تجدد (حدث) منه ومن مماليكه وأتبـاعه من الجـور والتهور ... » صفحة ١٧٥ ــ ١٧٧ .

(ومن المماليك) « الامير حسن بك الجداوى ... استقل بمن بقى بالأمراء وفعل معهم من الغرور والحمق والشر ما أوجب لهم بغض النعيم ... » صفحة ١٨٠ ، ومنهم « الأمير عثمان المعروف بالشرقاوى .. وعـرف

بالشرقاوى لكونه تولى الشرقية ووقع منه ظلم وجبروت وصادر كثيرا من الناس فى أموالهـم » صفحة ١٨١ ٠ ومنهم « الأمير مصطفى بك الكبير ٠٠٠ تولى الصـعيد وامارة الحج عدة مرار (مرات) وكان فظا غليظا ٠٠ بخيلا شحيحا ٠ وفى امارته على الحج ترك زيارة المدينة لخوفه من العرب وشحه بعوائدهم وقلة اعتنائه بشعائر الدين ، وانتقد ذلك عـلى المصريين » ٠ صفحة ١٨٢ ، ومنهم « الأمير قائد أغا ٠٠٠ وكان يلقب ٠٠٠ بقـائد نار ، لظلمه وتجبره ٠٠٠ أكثر عنـده من الأعـوان والأتباع ٠٠٠ يضرب الناس ويحبسهم ويصادر أموالهم ٠٠٠ استولى على كثير من حصص الاقطاع ٠٠ وكان له أخ من أقبح خلق الله فى الظلم ، اتخذ له أعوانا وأتباعا وليس عنده ما يكفيهم ، فكان يخطف كل ما مر بخطته (منطقته) ٠٠٠ من قمح ولبن وشعير وغير ذلك ولا يدفع له ثمنا » صفحة ١٨٢ ، ١٨٣ ٠

هذه الحقائق والأوصاف الواضحة ، على ايجازها ، من الجبرتى الذى يعد أهم شاهد عـلى عصره ، تفيـد بوضوح أن مصر لم تكن لها حـكومة ، ولا شريعـة ، ولا نظام ، ولا عدل ، ولا أمن ، فى ذلك العهد الفاسد ، من حكم العثمانيين سنة ١٥١٧ حتى تاريخ بداية الحملة

الفرنسية ، وانما كان يتحكم فى النـاس والاموال والاعراض طغمة من المماليك ، وهم عبيد مستوردون بالشراء من بلاد بعيدة • أغلبها بلاد التتار ، فكانوا ظلمة فجرة ، أغلبهم بلا دين ولا خلق ، ولا تحضر ولا تمدين ، ولا عقلانية ولا انسانية ، فحطموا مصر وأذلوا شعبها ، وعجزوا عن الدفاع عنهـا أمام الحملة الفرنسية ، ففتحوا أبوابها من ثم للمستعمرين والمغامرين ، ورسبوا فى الكيان الاجتماعى والتراث الشعبى مفاهيم خاطئة ومضامين فاسدة ، تدفع الى قبول الظلم والفساد والطغيان ، وتمنع أى شجاعة أو جسارة أو اقدام ، وهى مفاهيم ومضامين مازالت ممتدة فعالة فى الهيئة الاجتماعية والاتجاهات الشعبية •

(ب) وفيما يتعلق بالوضع العام فى المجتمع عندما وصلته أنباء الحملة الفرنسية يؤرخ الجبرتى فيقول :

« فى كل يوم يتزايد الجمع ويعظم الهول ويضيق الحال بالفقراء الذين يحصلون أقواتهم يوما فيوما لتعطل الأسباب واجتماع الناس كلهم فى صعيد واحد • وانقطعت الطرق وتعدى الناس بعضهم على بعض لعدم التفات الحكام ، واشتغالهم بما دهمهم • وأما بلاد الأرياف فانها قامت على ساق يقتل بعضهم بعضا وينهب

بعضهم بعضا · وكذلك العرب خارت على الأطراف والنواحي ، وصار قطر مصر من أوله الى آخره في قتل ونهب واخافة طريق وقيام شر واغارة على الأموال وافساد المزارع ، وغير ذلك من أنواع الفساد الذى لا يحصى » صفحة ٧ ·

« وكانت العلماء ··· تجتمع فى الأزهر كل يوم ويقرأون البخارى وغيره من الدعوات وكذلك مشايخ خفراء الأحمدية والرفاعية والبراهمة والقادرية والسعدية غيرهم » صفحة ٦ ·

« واستمر بعض الناس طول الليل خارجين من مصر · البعض بحريمه والبعض ينجو بنفسه ، ولا يسأل أحد عن أحد ، بل كان كل واحد مشغول بنفسه عن أبيه وابنه » صفحة ٩ ·

« فلما خرجوا من أبواب البلد وتوسطوا الفلاة تلقفتهم العربان والفلاحون فأخذوا أمتعتهم ولباسهم وأحمالهم ، بحيث لم يتركوا لمن صادفوه ما يستر عورته أو يسد جوعه · فكان ما أخذته العرب شيئا كثيرا يفوق الحصر ، بحيث ان الأموال والذخائر التي خرجت من

مصر (أى القاهرة حالا) فى تلك الليلة أضعاف ما بقى فيها بلا شك » صفحة ٩ ٠

« وربما قتلوا (العربان) من قدروا عليه أو دافع على نفسه ومتاعه وسلبوا ثياب النساء وفضحوهن وهتكوهن (أى هتكوا أعراضهن) » صفحة ١٠ ٠

« وفى كل يوم تكثر الاشاعة بقرب الفرنسيس إلى مصر وتختلف الناس فى الجهة التى يقصدون المجىء منها ٠ فمنهم من يقول انهم واصلون من البر الغربى ومنهم من يقول بل يأتون من الشرقى ومنهم من يقول بل يأتون من الجهتين ٠ هذا وليس لأحد من أمراء العساكر همة أن يبعث جاسوسا أو طليعة تناوشهم القتل قبل دخولهم وقربهم ووصولهم الى فناء المصر ، بل كل من ابراهيم بك ومراد بك (الحاكمان) جمع عساكره ومكث مكانه لا ينتقل عنه، ينتظر ما يفعل به، وليس ثمة قلعة ولا حصن ولا معقل ٠ وهذا من سوء التدبير واهمال أمر العدو » صفحة ٧ ٠

« فلما عاين وسمع عسكر البر الشرقى القتال ضج العامة والغوغاء من الرعية وأخلاط الناس بالصياح ورفع الأصوات بقولهم يارب ويا لطيف ويا رجال الله ٠

ونحو ذلك ، وكأنهم يقاتلون ويحاربون بصياحهم وجلبتهم . فكان العقلاء من الناس يصرخون عليهم ويأمرونهم بترك ذلك ، ويقولون لهم ان الرسول والصحابة انما كانوا يقاتلون بالسيف والحراب وضرب الرقاب ، لا برفع الأصوات والصراخ والنباح ، فلا يستمعون ولا يرجعون عما هم فيه » صفحة ٨ .

(جـ) أما حالة الناس عامة ، ووضع البلد وما فيه ، فيعبر عنه أصدق تعبير ما أرخه الجبرتي عن أفعال وأعمال ووقائع حدثت قبل الحملة الفرنسية ، أو بعد دخول الجيوش الفرنسية الى مصر ، وهي ذات أصل سابق وجذر ممتد من الماضي (بل والى المستقبل) :

« إنضم اليهم كثيرون من أهل البدع كجماعة العفيفي والسمان والعربي والعيسوية ، فمنهم من يتحلق بذكر الجلالة ويحرفها وينشد له المنشدون القصائد والموالات (المواويل) . ومنهم من يقول أبياتا من بردة البوصيري ويجاوبهم آخرون ... أما العسيوية فهم جماعة من المغاربة ... يضربون بالدفوف ... ويلتوون وينتصبون ، ويرتفعون وينخفضون ... ويضربون الأرض بأرجلهم . كل ذلك مع الحركة العنيفة والقوة الزائدة ... مع ما ينضم الى ذلك من

جمع العوام وتحلقهم بالمسجد والهذيان وكثرة اللفظ والحكايات والاضاحيك والتلفت الى حسان الغلمان ٠٠ والسعى خلفهم والافتتان بهم ، ورمى قشور اللب والمكسرات والمأكولات بالمسجد ، وطواف الباعة بالمأكولات على الناس فيه ، وسقاة الماء ٠ فيصير المسجد (الحسينى) بما اجتمع فيه من هذه القاذورات والعفوش ملتحقا بالأسواق الممتهنة ٠٠٠ ثم زاد على ذلك قدوم جماعة ٠٠٠ من الحارات البعيدة والقريبة ٠٠٠ يتكلمون بكلام محرف يظنون أنه ذكر وتوسلات يثابون عليها » صفحة ٤١ ٠

« أثبتوا هلال رمضان ٠٠٠ ثم ركب (المحتسب) من هناك بالموكب وأمامه المشاعل الكثيرة والطبول والزمور والنقاقير ، والمناداة بالصوم ، وخلفه عدة خيالة عارية رؤوسهم وشعورهم مرخية على أقفيتهم بشكل بشع مهول » صفحة ٤٥ ٠

« أهل مصر جروا على عادتهم فى بدعهم التى كانوا عليها ، وانكمشوا عن بعضها ، واحتشموا خوفا من الفرنسيس (عندما احتلوا مصر) ٠ فلما تدرجوا وأطلق لهم الفرنساوية القيد، ورخصوا لهم وسايروهم، رجعوا اليها ، وانهمكوا فى عمل مواليد الأضرحة التى

يرون فرضيتها ، وأنها قربة تنجيهم من المهالك وتقربهم الى الله زلفى فى المسالك • فرمحوا فى غفلاتهم مع ماهم فيه من الأسر » صفحة ٤٥ •

« ••• يعجن نخالته خبزا ، الفقراء والعميان ، يتقوتون به ، مع ما يجمعونه من الشحاذة فى طوافهم آناء الليل وأطراف النهار بالأسواق والأزقة ، وتغنيهم بالمدائح والخرافات وقراءة القرآن فى البيوت ومساطب الشوارع » صفحة ٦٤ •

« السيد على كان رجلا من البله ، وكان يمشى فى الأسواق عريانا مكشوف الرأس والسوأتين (أى من قبل ومن دبر) غالبا ، وله أخ صاحب دهاء ومكر لا يلتئم به ••• ثم بدا لأخيه فيه أمر لما رأى ميل الناس لأخيه ، واعتقادهم فيه ، كما هى عادة أهل مصر فى أمثاله ، فحجر عليه (أى حبسه) ومنعه من الخروج من البيت وألبسه ثيابا وأظهر للناس أنه (أى الأبله) أذن له بذلك ، وأنه (أى الأبله) تولى القبطانية (أى صار قطبا ، بلغة الصوفية) ••• فأقبلت الرجال والنساء على زيارته والتبرك به ، وسماع ألفاظه ، والانصات الى تخليطاته ، وتأويلها بما فى نفوسهم • وطفق أخوه

المذكور يرغبهم ويبث لهم فى كراماته ، وإنه يطلع على خطرات القلوب والمغيبات ، وينطق بما فى النفوس ، فانهمكوا على التردد اليه ، وقلد بعضهم بعضا . و أقبلوا عليه بالهدايا والنذور والامدادات الواسعة فى كل شىء ، وخصوصا من نساء الأمراء (المماليك) الأكابر . وراج حال أخيه واتسعت أمواله ، وتنقت سلعته . وصادت شبكته . وسمن الشيخ (الأبله) من كثرة الأكل والدسومة والفراغ والراحة حتى صار مثل البوا (الشىء) العظيم ... (ولما) مات ... دفنوه ... وعمل عليه (الأخ) مقصورة ومقاما ، وواظب عليه بالمقرئين والمداحين ... يتواجدون ويتصارخون ، ويمرغون وجوههم على شباكه وأعتابه ، ويغرفون بأيديهم من الهواء المحيط به ويضعونه فى أعبابهم وجيوبهم » . صفحة ٨٤ .

وفى هذه الواقعة ، التى هى مثل حى واضح صريح تشير الى عقليةالناس وفهمهم الخاطىء للدين، وتهافتهم على البله والحمقى والجهال ، يورد الجبرتى من شعر بدر الحجازى أبياتا منها :

« ليتنا لم نعش الى أن رأينا

كل ذى جنة لدى الناس قطبا

علماءهم به يلوذون بل قد

اتخذوه من ذى العرش ربا

اذ نسوا الله قائلين فلانا

عن جميع الأنام يفرج كربا

واذا مات يجعلوه مزارا

وله يهرعون عجما وعربا

بعضهم قبل الضريح وبعض

عتب الباب قبلوه وتربا

هكذا المشركون تفعل مع أصنا

مهم ، تبتغي بذلك قربا »

تلك صور ، تكاد تنطق بما فيها من بساطة التعبير وسلاسة القول وبراءة القصد • ومنها يظهر بوضـوح وجلاء أنه لم يكن يوجـد شـعب بالمعنى الحقيقى ، أو مجتمع بالوصـف الصـحيح ، أو حكـومة بالمعـايير المعتبرة ، انما توجد أخلاط متباينة وأمشاج متنافرة ، وقادة طغاة مستبدون • والـكل عـلى جهالة وبطالة ، وعماء وغشومة ، وأنانية وعدوانية •

فالناس لا تحترم المساجد ، ولا تعرف لها حرمة أو لياقة ، وانما يحولونها الى أسواق للشعوذة والتراقص ،

والتسامر والتضاحك ، والمـأكل والمشرب ، واصطياد الغلمان وكثرة الهذيان • وهم يقدسون رجلا أبله عاش بينهم وهو عارى السوآتين ، يصدقون أنه صـار قطبـا ويقدمون اليه النذور والهدايا ، ويفسرون خطرفتـه عـلى أنهـا منطوقات عن أحوالهم ؛ ويبنون له مقـاما وضريحا • وعندما آزفت الآزفة لم يجتمعوا على قلب رجـل واحـد ـ كما يقـولون ـ وراء قادة مفـكرين مدبرين ، أو خلف عقلاء حكماء ، لـكنهم يفـرون كل بنفسه ، لا يعنى بأب أو بابن ، بل بنفسه وحده ، وهو الحال الذى يصوره المثل الشـعبى الدارج « ان جالك الطوفان حط ولدك تحت رجليك » • والقادة المحاربون يقعدون فى انتظار هجوم الأعداء دون أن يعرفوا عنهم شيئا أو يحاولوا التجسس عليهم أو تعويق تقدمهم •

فى هذا الحطام الاجتماعى والركام الشعبى سقطت مصر فى ثلاثة أرباع ساعة ، وفى ذلك يقول الجبرتى : « الطابور الذى تقدم لقتال مراد بك انقسم على كيفية معلومة عنـدهم فى الحـرب (أى بالتنظيم العسـكرى المعهود فى الحروب) وتقارب من المتاريس بحيث صار محيطا بالعسكر من خلفه وأمامه ، ودق طبوله وأرسل بنادقه المتتـالية •• (أى أطلق من البنـادق الآليـة)

والمدافع ... بحيث خيل للناس أن الأرض تزلزلت والسماء عليها سقطت ، واستمر الحرب والقتال نحو ثلاثة أرباع الساعة ، ثم كانت ... الهزيمة على العسكر الغربي (في منطقة امبابة) ، فغرق الكثير من الخيالة في البحر (في نهر النيل أثناء عبورهم الى القاهرة) لاحاطة العدو بهم وظلام الدنيا . والبعض وقع أسيرا في أيدي الفرنسيس (الذين) ملكوا المتاريس . وفر مراد بك ومن معه .. » صفحة ٨ .

وهكذا ، قضى الأمر وسقطت مصر !



الفرنسيون فى مصر

بعد هزيمة المماليك فى موقعة امبابة ، فر مراد بك (أحد الحاكمين) الى الصعيد بينما فر ابراهيم بك (ثانى الحاكمين) الى بلاد الشام ، وصارت مصر قطرا مفتوحا أمام الفرنسيين ٠

الفرنسيون فى مصر :

(أ) عما حدث فى هذا اليوم ، وليلته ، واليوم التالى ، يقول الجبرتى :

« كانت ليلة وصباحها فى غاية الشناعة ، جرى فيها ما لم يتفق مثله فى مصر ولا سمعنا بما شابه (حدث) بعضه فى تواريخ المتقدمين ٠ فما (فمن) رأى (ليس) كمن سمع ٠ ولما أصبح يوم الأحد المذكور والمقيمون (أى الناس) لا يدرون ما يفعل بهم ومتوقعون حلول الفرنسيس ووقوع المكروه ٠ ورجع الكثير من

الفارين وهم فى أسوأ حال من العرى والفزع ، فتبين أن الافرنج (الفرنسيون) لم يعدو (يعبروا) الى البر الشرقى ··· فاجتمع فى الأزهر بعض العلماء والمشايخ وتشاوروا ، فاتفق رأيهم على أن يرسلوا مراسلة الى الافرنج وينتظروا ما يكـون من جـوابهم ، وأرسلوها صحبة شخص مغربى يعرف لغتهم (الفرنسية) وآخـر صحبته ، فغابا وعادا فأخبرا انهما قابلا كبير القـوم (نابليون) ··· فقال ··· وأين عظماؤكم ومشايخكم؟ ولم تأخروا عن الحضور الينا لنرتب لهم ما يكون فيـه الراحة ··· وكتبـوا (الفرنسـيون) لهم ورقة ··· مضمونها ··· خطابا لأهل مصر : اننا أرسلنا لكم فى السابق كتابا فيه الكفاية ، وذكرنا لكم أننا ما حضرنا الا بقصد ازالة المماليك الذين يستعملون (يعاملون) الفرنساوية بالذل والاحتقار ، وأخذ مال التجار ومال السلطان

: ولما حضرنا الى البر الغربى (منطقـة امبـابة) خرجوا الينا فقابلناهم بما يسـتحقونه وقتلنا بعضهم وأسرنا بعضهم ، ونحن فى طلبهم حتى لم (لن) يبق أحد منهم بالقطر المصرى · وأما المشـايخ والعلمـاء وأصحاب المرتبات والرعية (أى الشـعب) ، الذى كان

يعد رعية عثمانية) فيكونون مطمئنين وفى مساكنهم مرتاحين ... ثم قال لهم (للرسولين) . لابد أن المشايخ والشربجية (الشوربجية وهم المسئولون عن الأموال) يأتون الينا لنرتب ديوانا ننتخبه من سبعة أشخاص عقلاء ، يدبرون الأمور . ولما رجع الجواب بذلك اطمأن الناس . وركب الشيخ مصطفى الصاوى والشيخ سليمان الفيومي وآخرون الى الجيزة (حيث الفرنسيون) فتلقاهم (نابليون) وضحك لهم وقال : أنتم المشايخ الكبار ؟ فأعلموه آن المشايخ الكبار خافوا وهربوا . فقال : لأى شيء يهربون ؟ اكتبوا لهم بالحضور (وسوف) نعمل لكم ديوانا لأجل راحتكم وراحة الرعية واجراء (تطبيق) الشريعة .. » صفحة ١٠ .

وفى هذا الوقت ، يقول الجبرتى « اجتمعت .. أوباش الناس ونهبوا بيت ابراهيم بك ومراد بك ... وأحرقوهما . ونهبوا أيضا عدة بيوت من بيوت الأمراء (المماليك) وأخذوا ما فيها من فرش ونحاس وأمتعة وغير ذلك ، وباعوه بأبخس الأثمان » صفحة ١٠ .

بعد يومين « عدت (عبرت) الفرنساوية الى بر مصر (البر الغربى) وسكن بونابارته بيت محمد بك الألفى (وهو من المماليك) بالأزبكية » صفحة ١١ .

« ولم يدخل المدينة الا القليـــل منهم ومشـــوا فى الأسواق من غير سلاح ولا تعديل (أى عنف) ، صاروا أيضا يضاحكون الناس ويشترون ما يحتـــاجون اليـــه بأغلى ثمن ، فيأخذ أحـــدهم الدجاجة ويعطى صـــاحبها فى ثمنها ريال فرانسه (فرنسى) ، ويأخذ البيضـــــة بنصف فضة ، قياســـا عـــلى أســـعار بلادهم وأثمـــان بضائعهم . فلما رأى منهم العـــامة ذاك أنســـوا بهـــم واطمأنوا لهم ، وخرجوا اليهم بالكعك وأنواع الفطير والخبز والبيض والدجاج وأنواع المأكولات وغير ذلك ، مثل السكر والصابون والدخان والبن ، وصاروا يبيعون عليهم (لهم) بما أحبوا من الأسعار (أى رفعوا أسعار السلع المبيعة بما يشاءون) . وفتح غالب الســـــوقة (الأسواق) الحوانيت والقهاوى . » صفحة ١١ .

(ب) وفي وصف الفرنسيين : يقول الجبرتى قبل أن يشرح بالتفصيل محاكمة سليمان الحلبى قاتل كليبر ، القائد الذى خلف نابليون عندما سافر الى فرنسا .

« وانقضت الحكومة (المحاكمة) على ذلك ....

(و) رأيت كثيرا من الناس تتشوق نفســـه الى الاطـــلاع عليها ، لتضمنها خبر الواقعة وكيفية الحكومة (الحكم

القضائى) ، ولما فيها من ضبط الأحكام من هؤلاء الطائفة (الفرنسيون) الذين يحكمون العقل ... وقد تجارى (اجترأ) على كبيرهم ... رجل أفاقى (آفاق) أهوج (هو سليمان الحلبى) وغدره (أى قتله) وقبضوا عليه وقرروه ، ولم يعجلوا بقتله وقتل من أخبر عنهم بمجرد الاقرار ... بل رتبوا حكومة (قضاء) ومحاكمة ... ثم نفذوا الحكم بما اقتضاه التحكيم (حكم به القضاء) ؛ بخلاف ما رأيناه بعد ذلك من أفعال أوباش العساكر الذين يدعون الاسلام ، ويزعمون أنهم مجاهدون ، وقتلهم الأنفس ، وتجاريهم (اجتراءهم) على هدم البنية الانسانية (ازهاق روح الانسان) بمجرد (لمجرد اشباع) شهواتهم الحيوانية » صفحة ١٢٢ .

« ومن طبعهم (الفرنسيون) فى الشرب أنهم يتعاطون لحد النشوة وترويح النفس ، فان زادوا عن ذلك الحد لا يخرجون من منازلهم . ومن سكر وخرج الى السوق ووقع منه أمر مخل عاقبوه وعزروه . » صفحة ٤٦ .

« قال الخازندار : ان الفرنساوية لا يحبون الكذب ولم يعهد عليهم (ذلك) ... فقال بعض

الحـاضرين بمـا (لا) يكذب (الا) الحشـاشون ، والفرنساوية لا يأكلون الحشيش » صفحة ١٦٦ ٠

« وقال الخازندار عن الفرنسيس : لا يخطر فى بالكم قلة عساكرهم ، فانهم على قلب رجـل واحـد » صفحة ٦٦ ٠

وفى حديث لمينو القائد الذى خلف كليبر بعـد قتله « كل واحد منكم رأى المحبة والاخوة التى كانت موجـودة ما بين الفرنسـاوية وما بين أهـل الديار المصرية ، فقد كان الجيش (الفرنسى) والأهل المذكورون مثل الرعية الواحدة (الجماعة الواحدة)» صفحة ١٩٥ ٠

« ثم ان عساكرهم صارت تدخـل المدينـة شيئا فشيئا حتى امتلأت منها الطرقات وسكنوا فى البيـوت ولكن لم يشوشوا على أحد ٠ ويأخذون المشتروات بزيادة عن ثمنهـا ٠ ففجر السـوقة وصغروا أقراص الخبز وطبخوه (عجنوه) بترابه ٠ وفتح الناس عدة دكاكين بجوار مساكنهم يبيعون فيها أصناف المأكـولات مثـل الفطير والكعك والسمك المقلى واللحوم والفراخ المحمرة وغير ذلك ٠ وفتح نصـارى الأروام عـدة دكاكين لبيع أنواع الأشربة وخمامير (خمارات) وقهاوى ٠٠ وفتح

بعض الافرنج البلديين (المقيمون فى مصر) بيــوتا تصنع فيها أنواع الأطعمة والأشربة عــلى طرائقهم فى بلادهم فيشترى الأغنام والدجاج والخضارات (الخضار) والأسماك والعسل والسكر وجميع اللوازم ، ويطبخه الطباخــون ، ويصــنعون أنــواع الأطعمة والحلاوات (الحلوى) ويعمــل (يضــع) عــلى بابه علامة لذلك يعرفونها بينهم ، فاذا مرت طائفة (من الفرنسيين) بذلك المكان تريد الأكل دخلوا الى ذلك المكان ، وهــو يشتمل على عدة مجالس دون وأعلى (أماكن تحت وفوق)، وفى وسطه دكة من الخشب وهى الخوان (المنضــدة) التى يوضع عليها الطعام وحولها كراسى، فيجلسون عليها (اليها) ويأتيهم الفراشون (الندل أو الخدم) بالطعام على قوانينهم (نظمهم) فيأكلون ويشربون على نســق (نظام) لا يتعدونه . وبعــد فراغ حاجتهــم يدفعون ما وجب عليهــم من غــير نقص ولا زيادة ، ويذهبــون لحالهم » صفحة ١٢ .

● مما سلف عرضه يظهر ما يلى :

١ ــ أن حكام مصر من المماليك سارعوا بالهروب من الساحة فور هزيمة جناحهم فى الســاحل الغربى ،

الجيزة . بقيادة الطاغية مراد بك. وبهذا تركوا المصريين للمجهول ، دون أى دفاع عنهم او أى ترتيب لهم .

٢ ــ ضربت على المصريين سلبية شديدة ، فلا قادة لهم ، ولا زعماء منهم ، ولا رياسة فيهم ، ولا جماعة مستنيرة (انتلليجنسيا Intellegentia) ترسم لهم ما ينبغي عمله ، وتبادر الى اتخاذ خطوات أو قرارات . وبهذا قعد الشعب والمشايخ ينتظرون ما يفعله فيهم الجيش الغازى .

٣ ــ وقد خشى كبار المشايخ على أنفسهم ، فاختبأوا أو فروا ، ولم يفعلوا أى شيء ، وانما اتجه نفر من المغمورين ، وربما المغامرين ، لملاقاة قائد الجيش الغازى الذى استفسر منهما عن وضعيتهم ، ولما علم أنهم ليسوا الرؤساء الكبار ، طلب مقابلة هؤلاء ، بعد أن أعطاهم وأعطى الشعب أمانا .

٤ ــ عبر قائد جيش الفرنسيين الغزاة (نابليون بونابرت) عن أهدافهم فى أنها ازالة المماليك ، وترتيب ديوان منتخب لحكم البلاد ، وتطبيق الشريعة .

وحقيقة فان المماليك كانوا طغاة مستبدين ، يجترئون على حيوات الناس وأموال المصريين وأعراضهم،

لكنه كان من الأليق والأصوب ــ فى مغيـار التـاريخ وميزان الشعوب ــ أن يعمل المصريون على وقف ظلمهم ومنع اجترائهم ، ولو ضحوا بأنفسـهم ، التى كانت تذهب هباء لأى نزوة لمملوك ، كمـا انهـا كانت مـع وجود هذا الظلم والطغيان ، عبثا لا قيمة له ولا معنى فيه ٠

كذلك فان المصريين لم يطالبوا بتطبيق الشريعـة وهم مسلمون ، من حكامهم المماليك وهم مسلمون كذلك ، وانما أعلن ضرورة تطبيقها الجيش الفرنسى . بلسان واقرار قائده ٠

والى جانب ذلك ، فانه لأول مرة ، فى التـاريخ ، يسمع المصريون عن ترتيب ديوان منتخب منهم لمباشرة شئون الحكم والاشراف على ادارة أمور البلاد ، دون أن يكافحوا فى سبيل ذلك ، لا مع المماليك ، ولا مع السلطنة العثمانية ، أو غيرها ٠

٥ ــ دخل الجنود الفرنسـيون الى القـاهرة ، فى جماعات صغيرة ، دون سلاح وبغير عدوان ، فتبسـطوا مع الناس وتضاحكوا معهم ، واشتروا الأشياء بأسـعار أغلى من قيمتها ، مقدرين هذه القيمة حسب أسـعار بلادهم ٠ وهو أمر عجب له المصريون ، وأظهر الجبرتى

اندهاشه ، لأنهم اعتادوا أن يخطف الجنود والحكام ممتلكاتهم وأموالهم وبضائعهم ، غصبا وكرها ، دون دفع أى ثمن .

٦ ـ استغل بعض المصريين تصرف الفرنسيين فلم يسلكوا بالأصول ، ولم يتبعوا الأمانة فى البيع ، بل غالوا فى أسعار ما كانوا يبيعونه لهم ، وغشوا فى صناعة ما يعرضونه عليهم (وهو أمر لم يزل متبعا حتى اليوم) .

٧ ـ لاحظ الجبرتي ما قرره من أن الفرنسيين يتصرفون على مقتضى العقل، لأنه كان يعرف أن المماليك وجنودهم يتصرفون بنزق وخفة وحمق وطيش .

٨ ـ وصف الجبرتي ، المصرى الأزهرى الحكيم ، سليمان الحلبى بأنه أحمق أهوج ، ولم يقل عنه انه بطل مجاهد .

٩ ـ قارن الجبرتي تصرفات الفرنسيين بتصرفات غيرهم، من الترك وجنودهم، فقال عن هؤلاء انهم أوباش العثمانيين الذين يدعون الاسلام ، وهم يقتلون الناس اجتراء لمجرد الشهوة الحيوانية باغتيال أرواح البشر .

١٠ ــ عندما سكن الفرنسيون الى جوار المصريين لم يشوشروا عليهم ، أى لم يضايقوهم ولم يسيئوا اليهم ولم يخرجوهم من ديارهم ، على عكس ما كان يفعل وماسوف يفعل معهم جنود العثمانيين ٠

١١ ــ كان تقدير من تعامل من المصريين مع الفرنسيين أن هؤلاء لا يكذبون ، وقد علل ذلك بأنهم ليسوا حشاشين ، لأنهم لا يتعاطون الحشيش ٠ ويقول الجبرتى انهم يشربون فى اعتدال ، واذا خرج أحدهم عن حد الاعتدال عوقب ٠

١٢ ــ قامت بين المصريين والفرنسيين (الغزاة) محبة ومودة ، فصاروا كأنهم شعب واحد أو جماعة واحدة ٠

١٣ ــ أقيمت للفرنسيين أماكن خاصة لطعامهم وشرابهم ، على النمط والنسق الفرنسى ، كانت بأوضاعها وأوصافها غريبة عن المصريين ، وهى التى صارت فيما بعد ، الأسلوب العادى والنظام السائد ، عالميا ، فى كل المطاعم والمقاهى ٠

ويؤكد الجبرتى ، ما يكرر دهشته ، من أن الفرنسيين كانوا على الدوام يدفعون ثمن ما يأكلون أو يشربون ثم يذهبون لحالهم ، دون ضجيج أو عدوان ٠

الترتيبات الادارية والانشاءات المادية :

استحدث الفرنسيون في ادارة البلاد ما يلى :

١ ـ انشاء ديوان من عشرة من المشايخ ، منتخبين ، للاشراف على حكم البلاد ، فيما يعبر عنه الجبرتى بأنه « فصل الحكومات » • وبمجرد تحديد أعضاء المجلس ، تم تعيين : أغا مستحفظان (اشئون المالية) ، ووال للشرطة ، وأمين احتساب (أى المحتسب) • أى انه تشكلت حكومة ، بالمعنى المفهوم حالا (حاليا) •

وفى ذلك يقول الجبرتى ، ان أرباب (أى أعضاء) الديوان « كانوا ممتنعين من تقليد المناصب لجنس المماليك ، فعرفوهم أن سوقة مصر لا يخافون الا من الأتراك ولا يحكمهم سواهم ، وأن المختارين للحكم (هم) من بقايا البيوت القديمة الذين لا يتجاسرون على الظلم كغيرهم » صفحة ١١ •

٢ ـ انشاء المجمع العلمى المصرى •

٣ ـ الأمر بانارة المدينة ونظافتها « نادوا بوقود (ايقاد) قناديل سهارى بالطرق والأسواق » وبضرورة

النظافة « وأن يلازموا (النـاس) الـكنس والرش وتنظيف الطرق من العفوشات والقاذورات» ص ٢٠ .

٤ ـ منـع دفن المـوتى بالمدافن الملاصـقة لبيوت السكن ، أو أن يحدث الدفن بالقرب من سـطح الأرض دون حفر قبر عميق « نبهوا على الناس بالمنع من دفن الموتى بالترب القريبـة من المسـاكن كتربة الأزبكية والرويعى ، ولا يدفنـون المـوتى الا فى القـرافات البعيدة . والذى ليس له تربة بالقرافة يدفن ميته فى ترب المماليك . واذا دفنوا يبالغون (أى يزيدون) فى تسفيل (تعميق) الحفر » ص ٢١ .

٥ ـ ضرورة النظافة ونشر المفروشات والقضـاء عـلى الروائح العفنـة « ونادوا آيضـا بنشر الثياب والأمتعة والفرش بالأسطحة (الأسـطح) عـدة أيام ، وبتبخير البيـوت بالبخـورات (البخـور) المذهبـة للعفونة . كل ذلك للخوف من حصـول الطاعون وعدوه (وعدواه) » صفحة ٢١ .

٦ ـ انشاء منتزهات وطرقات وجسور على أسلوب عصرى حديث « أحدثوا بغيط النوبى المجاورة للأزبكية أبنية على هيئة مخصوصة (أى بأسلوب مختلف عما عهده

المصريون) متنزهة (منتزه) يجتمع بهـا النســاء والرجال للهو ··· ومهدوا التل المجاور لقنطرة الليمون وجعلوا في أعلاه طاحونا تدور في الهواء عجيبة ··· وشرعوا في ردم جهات (أماكن) حول بركة الأزبكيـة ··· حتى جعلـوها رحبـة ··· وقطعـوا أشـجارها وردموا مكانهـا بالأتربة ··· عـلى خط معتـدل من الجهتين ··· وجددوا القنطرة ··· وكانت (قد) آلت للسقوط · وفعلوا بعدها كذلك على الوضع والنسق بحيث صار جسرا عظيما ممهـدا مسـتويا عـلى خط مستقيم من الأزبكيـة الى بولاق ··· (ثم) ينقسـم بقرب بولاق قسمين : قسم الى طريق أبى العلا ، وقسم يذهب الى ··· سـاحل النيل ··· وأحدثوا طريقـا أخرى فيما بين باب الحديد وباب العدوى ··· بحيث صارت طريقا ممتدة من الأزبكية الى جهة قبة النصر ·· على خط مستقيم من الجهتين ··· وقيدوا (رتبوا) بذلك أنفارا منهم يتعاهدون تلك الطرق ويصلحون ما يخرج منها عن قالب الاعتـدال ··· وفعلوا هـذا الشغل الكبير والفعل العظيم في أقرب زمن (وقت) » صفحة ٣٥ ·

٧ ـ انشاء جسور على النيل · « الفرنساوية عملوا جسرا من مراكب مصطفة وعليها أخشـاب مسمرة من

بر مصر (القاهرة حالا) من قصر العينى الى الروضة ... تسير عليها النـاس بدوابهم وأنفسهم الى البر الآخر .. وعملوا جسرا عظيما من الروضة الى الجيزة (وهو ما أقيم مكانه فيما بعد كوبرى عباس ثم كوبرى الجيزة) » صفحة ٥٧ .

٨ ـ تأسيس مكتبة عامة . « فى أحد البيوت وضعوا جملة كبيرة من كتبهم وعليها خزان (مدير) ومباشرون ، يحفظونها ويحضرونها للطلبة ومن يريد المراجعة ... (وكانوا) يحضرون أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير (مختلف الصور) وكرات البلاد (خرائط جغرافية) والأقاليم والحيوانات والطيور والنباتات ، وتواريخ القدماء ، وسير الأمم ، وقصص الأنبياء ... وحوادث أممهم ، مما يحير الأفكار » صفحة ٣٥ .

٩ ـ تخصيص منطقة للبحث العلمى « أفردوا للمديرين والفلكيين وأهل المعرفة والعلوم الرياضية كالهندسة والهيئة والنقوشات والرسومات والمصورين والكتبة والحساب والمنشئين حارة الناصرية ... (وزقاقا) به بيوت » صفحة ٣٥ .

١٠ ـ ادخال الأدوات التقنية فى العمل «يستعينون فى الاشغال وسرعة العمل بالآلات قريبة المأخذ ، السهلة التناول ، المساعدة فى العمل وقلة الكلفة (فقد) كانوا يجعلون بدل الغلقان والقصاع عربات صغيرة ويداها ممتدتان من خلف (أمام العامل) يملؤها الفاعل ترابا أو طينا أو أحجارا من مقدمها بسهولة بحيث تتسع مقدار خمسة غلقان ثم يقبض بيديه على خشبتيها المذكورتين ويدفعها أمامه فتجرى عـلى عجلتها بأدنى مساعدة الى محل العمل فيميلها باحدى يديه ويفرغ ما فيها من غير تعب ولا مشـقة ٠٠٠ وكذلك كانت لهم فئـوس وقزم (أداة حـديدية) محـكمة الصنعة ، متقنـة الوضع » صفحة ٣٥ ٠

وقد « غرقت (مركب) فنزلت طائفة من الفرنسيس فى مراكب صغار وذهبوا اليهـا فى الغاطس (مكان غرقها) وأخرجوها بآلات ركبوها واصطنعوها من علم جر اثقال » صفحة ٣٩ ٠

١١ ـ استخدام البارود والألغام فى الهدم بأسلوب علمى « وقد كان الفرنساوية جعلوا به (بالبناء) لغما بالبارود المدفون فاشتعلت ذلك اللغم ورفع ما فوقه من الأبنية ، وطاروا فى الهواء ٠٠٠ وانهدم جميع ما هناك

من الدور والمبانى العظيمة والقصور المطلة على البركة، واحترق جميع البيوت التى عند بين المفارق ٠٠ والخطة (المنطقة) المعروفة بالساكت بأجمها ٠٠٠ وكذلك خطة الفوالة بأسرها ، وكذلك خطةالرويعى» صفحة١٠١ ٠

« كانوا يهدمون ٠٠ ٠ بالبارود على طريقة اللغم فيسقط المكان بجميع أجزائه من قوة البارود وانحباسه فى الأرض فيسمع له صوت عظيم ودوى » صفحة ١٧١ ٠

١٢ ـ انشاء مناطق لعزل القادمين الى مصر ، لمنع نقل الأمراض « عملوا كرنتيلة عند العادلية لمن يأتى من بر الشام من العسكر » صفحة ٥٨ ٠

١٣ ـ استحداث أسلوب نشر الأوامر ، وكتابتها ولصقها فى عدة أماكن ليراها الناس ٠ فقد صدر أمر من سارى عسكر (قائد الحملة) يلزم المديرين بالديوان (المختصون بتنفيذها ما يصدر عن الديوان من أوامر أنهم يشهرون الأوامر وينتبهوا لها (أى يتابع تنفيذها) ٠ صفحة ٥٥ ٠

١٤ ـ استحداث نظام ضبط عقود الزواج وو الميلاد والوفاة ، وقيد المسافرين والغرباء والا

عنهم وضبط الأملاك « ذكروا فى الديوان ··· ضبط وحصر من يموت ومن يولد ··· وأن يقيد (يقيض) له من يتصدى لذلك ويرتبه ويدبره ··· (ففى) ذلك حكما وفوائد منها ضبط الانساب ومعرفة الأعمار ··· وانقضاء عدة الزواج ··· » صفحة ١٤٩ · وكان بونابرت قد « أمر بأن يحرر دفتر يكتب فيه أسماء كامل الميتين (لأموات) ··· (ثم طلب مينو) دفتر آخر خلافه يتحرر فيه أسماء المولودين ·· (و) دفتر للزواج ··· ثم يتبع ذلك بتحديد نظام غير قابل للتغيير فى ضبط الأملاك » صفحة ١٥١ · « ويلزم كل صاحب خمارة أو وكالة أو بيت الذى يدخل فى محله ضيف أو مسافر أو قادم من بلدة أو اقليم أن يعرف عنه حالا حاكم البلد ولا يتأخر عن الاخبار الا مدة ٢٤ ساعة ، يعرفه عن مكانه الذى قدم منه وعن سبب قدومه وعن مدة سفره ومن أى طائفة ، أو ضيفا أو تاجرا أو زائرا أو غريما مخاصما ، لابد لصاحب المكان من ايضاح البيان » صفحة ٥٥ ·

١٥ ـ اناطة القضاء بالمصريين بدلا من قاضى عسكر (أى الرومى الذى كان يعين رئيسا عسكريا للقضاء) · « اجتمع أرباب (أعضاء) الديوان ··

وحضر اليهم ورقة من كبير الفرنسيس قرئت عليهم مضمونها ··· أنه وجه اليكم (اليهم) أن تقترعوا (تنتخبوا) وتختاروا شيخا من العلماء يكون من أهل مصر ومولود بها يتولى القضاء ، ويقضى بالأحكام الشرعية ··· واستحسنت أن يجتمع علماء المسلمين ويختاروا باتفاقهم قاضيا شرعيا من علماء مصر وعقلائهم لأجل موافقة القرآن الكريم باتباع سبيل المؤمنين » صفحة ٧٦ ·

● هذا الذى أنجزه الفرنسيون من اصلاحات ادارية وانشاءات مادية وتغييرات تقنية ، مما يلوح معه أنهم كانوا يعرفون الكثير عن مصر من قبل الحملة ، وأنهم كانوا قد غزوها ليستقروا فيها ، ولتكون مركزا لقاعدة لهم تمتد الى الشام شرقا والى الغرب غربا · لكن التساؤل الذى لابد أن يلح على الخاطر، هو أن العثمانيين غزوا مصر واحتلوها سنة ١٥١٧ رغم وجود الخلافة العباسية الثانية بها ، فلماذا أهملوها كل هذا الاهما واستعبدوا أهلها على الصورة التى سبق الالماح اليها ولم يضبطوا فيها الأعمال الادارية ولا أقاموا أ انشاءات مادية ؟! ذلك هو السؤال !



ثورة المصريين على الفرنسيين

مما سطره الجبرتى ، خير شاهد على عصره ، يظهر بوضوح أن العلاقة بين المصريين من جانب والفرنسيين من جانب آخر ، لم تكن مضطربة متعكرة ، بل على العكس فان فيما ذكره (الجبرتى) ما يفيد أن هذه العلاقة كانت حسنة طيبة ، ساعد على ذلك أن الفرنسيين ــ كما يورد الجبرتى فى تاريخه ــ لم يقتلوا اعتباطا ولم يصادروا بغشومة ، ولم يعتدوا بالعنف ، وانما تعاملوا مع الناس بالحسنى ، ودفعوا أثمان ما كانوا يشترون ، وضبطوا تصرفاتهم ، وسكنوا بين المصريين فلم يشوشوا عليهم أو يسيئوا اليهم .

مادام الحال كذلك ، فما الذى عكر صفو العلاقة بين الجانبين ؟

يقول بعض الكتاب والصحفيين ان المصريين قاوموا الاحتلال الفرنسى منذ البداية ، وأنهم قاموا بثورتين ،

كما أن أحد ابناء الشام تضـامن معهم فاغتـال قائدهم كليبر ، جهادا منه ومغازاة (غزوا) في سبيل الله • ولما كان من الأفضل عدم القاء الأقوال المرسلة على عواهنها ، واختلاق الأحداث المنتحلة التى لا اساس لها ، فانه يكون من الصحيح والعلمى ، أن يكون المرجع في البيان والوصف ما ذكره الجبرتى نصا فى كتاباته •

وأول ما يلحظ في ذلك أن الجبرتى لم يذكر وصف الثورة لما حدث من بعض أبناء القاهرة ضد الفرنسيين ، وانما أورد أحداث الواقعة الأولى دون توصيف لها أو تكييف لمعناها ، وقال في وصف أحداث الواقعة الثانية انها « حركة » ، تماما كما قيل عن الانقلاب العسكرى الذى وقع فى مصر يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ انه حركة الجيش ، وكانت هذه الصفة تذكر حتى في الأوراق الرسمية • وأهم مثل في ذلك ، الاعلان الدستورى الصادر فى ١٧ يناير ١٩٥٣ ، والذى عنون بأنه صادر من رئيس حركة الجيش •

(أ) عن الواقعة الأولى يقول الجبرتى « عملوا لهم (للمشايخ) ديوانا وكتبوا لهم كيفية قسمة المواريث وفروض القسمة الشرعية وحصص الورثة ، والآيات (القرآنية) المتعلقة بذلك فاستحسنوا ذلك ••• (و)

واحضروا (أى عقدوا) الديوان واحضروا قائمة مقررات الأملاك والعقار . فجعلوا على الأعلى (الأكبر) ثمانية فرانسه (فرنك فرنسى) والأوسط ستة والأدنى ثلاثة - وما كان أجرته اقل من ريال فى الشهر فهو معافى . وأما الوكائل (الوكالات) والخانات والحمامات والمعاصر والسيارج (السرج) والحوانيت ، فمنها ما جعلوا عليه ثلاثين وأربعين بحسب الخسة (الوضاعة أو الفقر) والرواج والاتساع (الغنى) . وكتبوا بذلك مناشير (منشورات) على عادتهم ، والصقوها بالمفارق والطرق ، وأرسلوا منها نسخا للأعيان وعينوا المهندسين ومعهم أشخاص لتمييز الأعلى من الأدنى (بتحديد مستويات العقارات) وشرعوا فى الضبط والاحصاء ، وطافوا ببعض الجهات لتحرير القوائم وضبط أسماء أربابها . ولما أشيع ذلك فى الناس كثر لغطهم واستعظموا ذلك ، والبعض استسلم للقضاء . فانتبذ جماعة من العامة وتناجوا فى ذلك ، ووافقهم على ذلك بعض المتعممين الذى لم ينظر فى عواقب الأمور ولم يتفكر أنه فى القبضة ماسور ، فتجمع الكثير من الغوغاء من غير رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم ، وأصبحوا ... متحزبين وعلى الجهاد عازمين ، وأبرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح وآلات الحرب والكفاح .

وحضر السـيد بدر وصـحبته حشرات الحسـينية وزعر (أزاعر) الحارات البرانية ولهـم صياح عظيـم وهول جسيم ، ويقولون بصياح فى الـكلام : نصر الله دين الاسلام · فذهبوا الى بيت قاضى العسكر (الرومى) وتجمعوا، وتبعهم ممن على شاكلتهم نحو الألف والأكثر، فخاف القاضى العاقبة وأغلق أبوابه وأوقف حجابه · فرموه بالحجارة والطوب ، وطلب (حاول) الهرب فلم يمكنه الهروب · وكذلك اجتمع بالأزهر العالم الأكبر · · · وفي ذلك الـوقت حضر ديـوى (الفرنسى) · · · فبادروا اليه وضربوه وثخنوا جراحاته ، وقتل الكثير من فرسانه وأبطاله وشجعانه · · · فعند ذلك أخذ المسلمون حذرهم وخرجوا يهرعون ، ومن كل حدب ينسـلون ، ومسكوا الأطراف الدائرة بمعظم أخطاط القـاهرة ، كباب الفتوح وباب النصر والبرقية الى باب زويلة وباب الشعرية وجهة البندقانيين وما جازاها ، ولم يتعدوا الى جهة سواها ، وهدموا مسـاطب الحـوانيت وجعلوا أحجارها متاريس للكرنكة ، لتعوق هجـوم العـدو فى وقت المعركة ، ووقف دون كل متراس جمع عظيم من الناس · وأما الجهات البرانية والنـواحى الفوقانيـة (خلاف المنطقة المحددة فيما سبق) فلم يفزع منهم فازع ولم يتحرك منهم أحد ولم يسـارع · وكذلك شـذ عن

الوفاق (الاتفاق) مصر العتيقة وبولاق . وعذرهم الأكبر قربهم من مساكن العسكر (الفرنسيين) ولم تزل طائفة المحاربين (لعل اللفظ تصريف من لفظ الحرابة بمعنى الخروج على الحاكم) فى الأزقة متترسين ، فوصل جماعة من الفرنساويين وظهروا من ناحية المناخلى ، وبندقوا (أطلقوا البنادق) على متراس الشوائين وبه جماعة من مغاربة الفحامين فقاتلوهم حتى أجلوهم ، وعن المناخلية أزالوهم .

وعند ذاك زاد الحال وكثر الرجف والزلزال ، وخرجت العامة عن الحد ، وبالغوا فى القضية بالعكس والطرد ، وامتدت أيديهم الى النهب والخطف والسلب على التمام ، فهجموا على حارة الجوانية ونهبوا دور النصارى الشوام والأروام وما جاورهم من بيوت المسلمين على التمام ، وأخذوا الودائع والأمانات ، وسبوا (من السبى ، أى أسروا) النساء والبنات ، وكذلك نهبوا خان الملايات وما به من الأمتعة والموجودات ، وأكثروا من المعايب (العيوب والمساوىء) ولم يفكروا فى العواقب . وباتوا تلك الليلة سهرانين وعلى هذا الحال مستمرين .

وأما الافرنج (الفرنسيون) فانهم اصبحوا مستعدين ، وعلى تلال ابرقية والقلعة واقفين ، وأحضروا جميع الآلات من المدافع والقنابر (القنابل) والبنبات (المقذوفات) ووقفوا مستحضرين (مستعدين) ، ولأمر كبيرهم (قائدهم) منتظرين ، وكان كبير الفرنسيين (بونابرت) أرسل الى المشايخ مراسلة فلم يجيبوه عنها ، ومل من المطاولة (التسويف) هذا والرمي متتابع من الجهتين ، وتضاعف الحال ضعفين ، حتى مضى وقت العصر وزاد القهر والحصر . فعند ذلك ضربوا (الفرنسيون) بالمدافع والبنبات (المقذوفات) على البيوت والحارات ، وتعمدوا بالخصوص الجامع الأزهر، وجرروا عليه المدافع والقنبر (القنابل) وكذلك ما جاوره من أماكن المحاربين ، كسوق الغورية والفحامين ، فلما سقط عليهم ذلك ورأوه ، ولم يكونوا فى عمرهم عاينوه ، نادوا يا سلام من هذه الآلام ، يا خفى الألطاف نجنا مما نخاف .

وهربوا من كل سوق ودخلوا فى الشقوق . وتتابع الرمى من القلعة والكيمان ، حتى تزعزعت الأركان ، وهدمت فى مرورها حيطان الدور وسقطت بعض القصور ونزلت فى البيوت والوكائل وأصمت

الآذان بصوتها الهائل ، فلما عظم الخطب ، وزال الحال والخطب ، ركب المشايخ الى كبير الفرنسيس ليرفع عنهم هـذا النازل ، ويمنع عسـكره من الرمى المتراسل ، ويكفهم كما انكف المسلمون عن القتال ، والحرب خدعة وسجال .

فلما ذهبـوا اليه واجتمعوا عليـه ، عاتبهـم فى التأخير ، واتهمهم فى التقصير ، فاعتذروا اليه فقبـل عذرهم ، وأمر برفع الرمى عنهم ، وقاموا من عنده وهم ينادون بالأمان فى المسالك ، وتسامع الناس بذلك فردت فيهـم الحـرارة ، وتسـابقوا لبعض بالبشـارة واطمأنت منهم القلوب ...

وأما أهل الحسينية والعطوف البرانية فانهم لـم يزالوا مستمرين وعلى الرمى والقتال ملازمين ، لـكن خانهـم المقصـود وفرغ منهـم البـارود . والافرنج (الفرنسـيون) أثخنـوهم بالرمى المتتـابع بالقنـابر والمـدافع ، الى أن ... فرغت من عنـدهم الأدوات ، فعجـزوا ... وانصرفـوا ، وكف عنهـم القـوم (الفرنسيون) ... و ... دخل الافرنج المدينة .. ومروا ... لا يجدون لهم مانع .. ومشوا الى الغورية ... وعلموا باليقين أن لا دافع لهم ولا كمين ... ثم

دخلوا الجامع الآزهر وهم راكبون الخيول ٠٠٠ وانتهكت حرمة تلك البقعة بعد ان كانت أشرف البقاع ٠٠٠ والفرنساوية لا يمرون بها الا فى النادر ، ويحترمونها عن غيرها فى الباطن والظاهر ٠٠٠

فركب ٠٠ المشايخ أجمع وذهبوا لبيت صارى عسكر ، (بونابرت) وقابلوه وخاطبوه فى العفو ولاطفوه ، والتمسوا منه أمانا كافيا ٠٠٠ (و) ترجوا عنده فى اخراج العسكر من الجامع الأزهر فأجابهم لذلك السؤال وأمر بأخراجهم فى الحال » صفحة ٢٥ ــ ٢٨ ٠

هذه احداث ما يطلق عليه البعض وصف الثورة ، يتضح مما بسطه الجبرتى أنه :

١ ـ قام بها جماعة من العامة ، ووافقهم بعض المتعممين ، الذين لم يصفهم الجبرتى بأنهم شيوخ ، وانضم اليهم الغوغاء والحشرات (أى سفلة الأسافل) والزعر (وهم سيئوا الخلق قليلوا الخبرة) ، بلا رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم ٠

٢ ــ والسبب فيها أن الديوان بدأ يفرض ضرائب وعوائد على العقارات والتجارة ، بطريقة قانونية

ووسيلة شرعية • مع أن المؤكد ، من الوقائع التى ذكرها الجبرتى قبل وبعد الحملة الفرنسية ، أن العثمانيين وجنودهم والمماليك وأتباعهم ، كانوا يأخذون من الناس ما يشاءون غصبا ، ويصادرون الأموال والأملاك بلا أى قانون او سند ــ ويفرضون الفردة (أى مبالغ يبتزونها بلا أى أساس) ، كما كانوا يلزمون الناس بما يسمونه قروضا ، وهى غصب أموال لا ترد • فكيف لم يثر الثائرون ولم تهج العامة على هذا الأسلوب الهمجى ، الذى كان يقع كالطامة ، بغير أى أساس قانونى ودون أى سند شرعى • فيستكينون له ويذعنون لوقعه ، لكنهم يتهيجون لفرض ضرائب بنظام محدد مقنن ، يصدر عن ديوان يتكون من مشايخهم ؟ والأغرب من ذلك أن يتهيج من هذه الضرائب العامة والغوغاء والحشرات والزعر ، وهم عادة من المعدمين الذين لا يملكون عقارا ولا يمارسون تجارة •

٣ ــ آرسل بونابرت رسالة الى المشايخ فلم يردوا عليه • وتحول هياج (هوجة) العامة ، ومن معهم ، الى النهب والسلب من بيوت الشوام والأروام والمسلمين ، وسبوا النساء (أى أخذوهم سبايا لهم يباح لهم مضاجعتهم) ، وأكثروا من الفحشاء •

فهل هذه ثورة ، أم انه أمر ظاهره العصيان وباطنه السلب والنهب وهتك اعراض نساء توجد فى المدينة ، لم يحارب رجالهم ولم يشتركن فى حرب أو فى ضرب ، فلما انتهى التخريب الى الحرب والضرب فرت العامة ، ومن ظاهرهم ، وحاق الأذى بالأبرياء من الناس !!

(ب) أشيع عن عقد صلح بين السلطنة العثمانية والجيش الفرنسى ليخرج هذا الجيش من مصر ، ويقول الجبرتى نصا « فلما كان بعد العشاء دخل .. الأغا (من رجال الدولة العثمانية) الى مصر فى موكب ، فحصل للناس ضجة عظيمة ... فلما كان صبح تلك الليلة عمل (عقد) ديوانا وجمع العلماء ... وأعيان الناس وكبار النصارى من الأقباط والشوام . فلما تكاملوا أبرز لهم فرمانا من الوزير ... مضمونه (فرض) المكوس (الجمارك) بمصر وبولاق ومصر القديمة .. والتحكير على جميع الواردات من أصناف الأقوات فيشتريها بالثمن الذى يسعره هو ... وأن .. كبير التجار ملزوم ومقيد بتحصيل .. (المال اللازم) لترحيل الفرنساوية ... وأخذ (كبير التجار) فى تحصيل ذلك القدر من الناس وفرضوه على التجار وأهل الأسواق والحرف ، وشرعوا فى تحكير الأقوات فغلت

اسعارها وضاقت مؤن الناس ودهى الناس من أول أحكامهم (احكام انعثمانيين) ... وأول مطلوبهم مصادرة الناس وأخذ المال منهم وتغريمهم ... فكان كل من توجه عليه مقدار .. اجتهد فى تحصيله وأخرجه عن طيب قلب وانشراح خاطر ، وبادر بالدفع من غير تأخير لعلمه أن ذلك لترحيل الفرنساوية ، ويقول سنة مباركة ويوم سعيد بذهاب الكلاب الكفرة ، كل ذلك بمشاهدة الفرنسيس ... وأما الرعايا وهمج الناس من أهل مصر فانهم استولى عليهم سلطان الغفلة ونظروا للفرنسيس بعين الاحتقار وأنزلوهم عن درجة الاعتبار، وكشفوا نقاب الحياء معهم بالكلية ، وتطاولوا عليهم بالسب واللعن والسخرية ، ولم يفكروا فى عواقب الأمور ، ولم يتركوا معهم للصلح مكانا ، حتى أن فقهاء المكاتب (الكتاتيب) كانوا يجمعون الأطفال ويمشون بهم فرقا وطوائف حسبة وهم يجهرون ويقولون كلاما مقفى بأعلى أصواتهم يلعن النصارى وأعوانهم ... وظنوا فروغ (فراغ) انقضية ولم يملكوا لأنفسهم صبرا حتى تنقضى الأيام المشروطة (لمغادرة الفرنسيين أرض مصر) ، على أن ذلك لم يثمر الا الحقد والعداوة التى تأسست فى قلوب الفرنسيس وأوجبت ما حصل بعد ذلك من وقوع العذاب البئيس ... وأخذ

الفرنساويه فى اهبة الرحيل ٠٠٠ ثم ان انعثمانيين تدرجوا في دخول مصر ٠٠٠ وآخذوا يشاركون الناس فى صناعاتهم وحرفهم ، مثل القهوجية والحمامية (أصحاب الحمامات العامة) والخياطين والمزينين وغيرهم ، فاجتمع العامة وأصحاب الحرف الى ٠٠٠ قائم مقام (الحاكم العثمانى) وشكوا اليه فلم يلتفت لشكواهم لأن ذلك من سنن عساكرهم وطرائقهم القبيحة ٠٠٠ وهيأت نساء الأمراء (المماليك) والأجناد احتياجاتهم وترتيباتهم ، وجروا على عادتهم فى التغالى (المبالغة) ، ولازمت الخدم والفراشون الغدو والرواح ٠٠٠ وهم يتغنون برفع أصواتهم ويتجاوبون بكلام وسخريات ولعن النصارى البلدية (الأقباط) والفرنسيس ، بمرأى منهم ومسمع ٠٠٠ مما يحرك الحفائظ ويوغر الصدور ٠٠٠

ويقال ان الفرنساوية (كان قد) أرسل اليهم بعض أصدقائهم من الانكليز وعرفوهم أن الوزير (العثمانى) اتفق مع الانكليز على الاحاطة بالفرنساوية اذا صاروا بظاهر البحر (بعد خروجهم من مصر) ، فلما ٠٠٠ تحققوا ذلك ٠٠٠ تأهبوا للمقاومة والمحاربة ، وردوا آلاتهم الى القلاع ٠٠٠ وحصنوا

الجهات .. وأبقوا .. بها .. عساكرهم .. (و) أرسلوا الى الوزير (العثمانى) يأمرونه بالرحيل فلم يسعه الا الارتحـال ... وغالب عسـاكره مفـرقون منتشرون فى البلاد والقـرى والنـواحى لجمع المـال ومقررات مقر الفرض وظلم الفقراء .

وأما أهل مصر فانهم ... كثر فيهم اللغط والقيل والقال ولم يدركوا حقيقة الحال ، فهاجوا ورمحوا الى أطـارف (اطـراف) البلد ، وقتلـوا أشـخاصا من الفرنساوية ... وذهبت شرذمة من عامة (عوام) أهل مصر فانتهبت الخشب وما وجدوه من نحاس وغيره حيث كان (ملك) الفرنساوية ، وخرج السيد عمر أفندى نقيب الأشراف والسيد أحمد المحروقى وانضـم اليهم أتراك خان الخليلى والمغاربة الذين بمصر ... وتبعهم كثير من عامة البلد وتجمعوا على التلول خارج باب النصر وبأيدى الكثير منهم النبابيت والعصى ، والقلل (أى القلة منهم) معه السلاح ... تحزب كثير من طوائف العامة والأوباش والحشرات (سفلة السفلة) وجعلوا يطوفون بالأزقة وأطارف (أطراف) البلد ولهم صياح وضجيج ...

فقال نصوح باشا (العثمـانى) للعـامة اقتلوا النصارى وجاهدوا فيهم ... فلمـا أظلم الليل أطلق

الفرنساوية المدافع والبنب على البلد من القلاع ووالوا الضرب بالخصوص على خط (منطقة) الجمالية ، لكون العظم (أكثر الجمع) مجتمعا بها . فلما عاين ذلك الجميع أجمع رأى الكبراء والرؤساء على الخروج من البلد فى تلك الليلة ، لعجزهم عن المقاومة وعدم (وجود) آلات الحرب وعزة (قلة) الأقوات ، و (لأن) القلاع بيد الفرنساوية ... فتجهز المعظم للخروج وغصت خطة الجمالية وما والاها من الأخطاط (الأحياء) بازدحام الناس ... وركب بعضهم بعضا ... ووقع للناس فى هذه الليلة من الكرب والمشقة والانزعاج والخوف مالا يوصف ...

وكان كل من قبض على نصرانى أو يهودى أو فرنساوى أخذه .. حيث عثمان كتخدا (العثمانى) ويأخذ عليه البقشيش ، فيحبس البعض ... و يقتل البعض ظلما ... وأرسلوا فأحضروا .. المدافع الكائنة بالمطرية ، فكانوا كلما أدخلوا مدفعا أدخلوه بجمع عظيم من الأوباش والحرافيش (أصلها : حارة فيش ، أى الذى ليس له أهل ولا مكان) والأطفال ولهم صياح ونباح ..

وحضر رجل مغربى ... والتفت عليه طائفة من المغاربة البلدية (المقيمون فى مصر) .. وفعل ذلك

المغربى أمورا تنكر عليه ، لأن غالب ما وقع من النهب وقتل من لا يجوز قتله يكون صدوره عنه ... ومعه جمع من العوام والعسكر (العثمانيين) ... ينهبون الدار ويسحبون النساء ويسلبون ما عليهن من الحلى والثياب . ومنهم من قطع رأس البنية الصغيرة طمعا فيما على رأسها وشعرها من الذهب ، وتتبع الناس عورات بعضهم البعض ... وأما (بعض المماليك ، فقد) .. ذهبوا ... فحارب الفرنساوية ... ولم يكن لهم بهم طاقة فطلبوا الأمان فأمنوهم وأخذوا سلاحهم وأخرجوهم حيث شاءوا ، فذهبوا أشتاتا فى الأرياف يتكففون الناس ويأوون الى المساجد الخربة ومات أكثرهم من العرى والجوع ... (و) تكلموا مع الوزير (العثمانى) ... فاعتذر اليهم بأعذار منها : عدم الاستعداد للحرب وتركه معظم الجبخانة (الأسلحة) والمدافع الكبار بالعريش ، اتكالا على أمر الصلح الواقع بين الفريقين (العثمانيين والفرنسيين) وظنه غفلة الفرنساوية عما دبره عليهم مع الانكليز ... (و) ارتحل الوزير ورجع الى الشام ...

وأما مراد بك .. (فقد) استمر على صلحه مع الفرنساوية ... (و) بعد ثمانية أيام من ابتداء

الحركة ٠٠ قطعوا (الفرنسيون) الجانب (الوارد) ٠٠ وأحاطوا بها (البلد) احاطة السوار بالمعصم ٠٠٠ (ف) عدمت (انعدمت) الأقوات وغلت اسعار المبيعات وعزت المأكولات وفقدت الحبوب والغلات وارتفع (قل) وجود الخبز من الأسواق ٠٠٠ وصارت العساكر (العثمانيون) ٠٠٠ يخطفون ما يجدونه بأيدى الناس من المآكل والمشارب ٠٠٠

هذا والمناداة فى كل وقت بالعربي والتركى على الناس بالجهاد ٠٠٠ وجرى على الناس مالا يسطر فى كتاب ولم يكن لأحد فى حساب ٠٠ وتوقع الهلاك كل لحظة والتكليف بما لا يطاق ، ومغالبة (تغلب) الجهلاء على العقلاء ، وتطاول السفهاء على الرؤساء ، وتهور العامة ولغط الحرافيش ٠

(وحاول بعض الناس التفاهم مع الفرنسيين لانهاء الوضع ، فتحدثوا مع سارى عسكر) ٠٠٠ فاعتذروا له بأن هذا من فعل ناصف باشا وكتخدا الدولة وابراهيم بك (العثمانيون) ومن معهم ، فانهم أثاروا الفتنة وهيجوا الرعايا ومنو الناس الأمانى الكاذبة ، والعامة لا عقول لهم ٠٠٠ فلما رجع المشايخ ٠٠ وسمعه الانكشارية (جنود العثمانيين) والناس

قاموا عليهم وسبوهم وشتموهم وضربوا ... ورموا عمائمهم وأسمعوهم قبيح الكلام ، وصاروا يقولون هؤلاء المشايخ ارتدوا وعملوا (تحولوا الى) فرنسيس، مرادهم خذلان المسلمين ، وأنهم أخذوا دراهم من الفرنسيس .

وتكلم السفلة والغوغاء ... وتشدد في ذلك الرجل المغربي الملتف عليه أخلاط العالم (النـاس) ونادى من عند نفسه : الصلح منقوض وعليكم بالجهاد من تأخر عنه ضرب عنقه ... وان غرضه هو في دوام الفتنة ، فان بها يتوصل لما يريده من النهب والسلب والتصور بصورة الامارة باجتماع الأوغاد عليه ... (و) أرسل اليهم الباشا (الوزير) والكتخدا يقولان لهم ... لا نرجع عن حربهم (حرب الفرنسيين) حتى نظفر بهم أو نموت عن آخرنا ... وصمموا على العناد ... حتى ضاق خناق الناس من استمرار الليل والنهار ، مع ما هم فيه من عدم القوت ، حتى هلكت الناس وخصوصا الفقراء والدواب ، وايذاء عسكر العثماني للرعية ، وخطفهم ما يجدونه معهم ، حتى تمنوا (المصريون) زوالهم (أى زوال العثمانيين) ورجوع الفرنسيس ... (ثم انتهى كل ذلك » بعد

ثلاثين يوما . وقع بها من الحروب والكروب والانزعاج والشتات والهياج وخراب الدور وعظائم الأمور ، وقتل الرجال • ونهب الأموال وتسلط الأشرار وهتك الأحرار» صفحة ٩٥ ـ ١٠٩) •

فالذى يخلص من واقــع سرد الجبرتى ، المصرى الأزهرى ، للأحداث ، أنه :

١ ـ وقــع صــلح بين العثمــانيين والفرنســيين (بقيادة كليبر) يغادر هؤلاء بمقتضاه ارض مصر ، لكن العثمانيين تواطأوا مع الانجليز على محاصرة الفرنسيين فى البحر الأبيض (المتوسط) ، وضربهم ، وهو ما اعترف به الوزير العثمانى على تقدير منه بأن ذلك يحــدث فى غفلة عن الفرنسيين ، غير أن هؤلاء علموا بذلك ، فامتنعــوا عن الخــروج من مصر ، وهيأوا أنفســهم ومعداتهم للقتال •

٢ ـ كان الخدم والهمج يسبون الفرنسيين ، فى مواجهتهم ، بغير أى اعتبار لهم ، فكشفوا نقاب الحيــاء معهم وتطاولوا عليهم بالسب واللعن والسخرية • ولم رصد الجبرتى أى واقعة تشير الى انفعال الفرنسيين من هذا التحرش والاستفزاز والرد عليه باى صورة •

٣ ــ قامت شرذمة من الناس ، وانضم اليهم العامة والأوباش والحشرات بنهب الخشب والنحاس وغيره من أملاك الفرنسيين ٠

٤ ــ تجمع العامة والأوباش والحشرات (بألفاظ الجبرتى) ومعهم العصى والنبابيت وبعض الأسلحة ، فقال لهم نصوح باشا (العثمانى) اقتلوا النصارى وجاهدوا فيهم ٠ فكأن العثمانيسون هم الذين أثاروا المسألة الدينية والنعرة الطائفية ، وهو ما أدى بالعامة الى القبض على الفرنسيين واليهود والنصارى وتقديمهم الى الكتخدا العثمانى ليقتل منهم من يشاء ظلما ، كما دفع بعض العامة الى قتل الفرنسيين ٠

٥ ــ ضرب الفرنسيون المدينة بالقنابل والمدافع ، فاضطرب الناس وطلبوا الأمان ، ولما حاول شيوخهم الصلح قالوا فى ذلك ان العثمانيين هم الذين هيجوا العامة وأثاروا الفتنة ٠ لكن العامة ضربوا المشايخ وأهانوهم ورفضوا الصلح ، مع أنهم بلا عدة أو عتاد ٠

٦ ــ كان ممن يثير الفتنة رجل مغربى ، لأنه كان يجد فى هذه الفتنة فرصته للتآمر على الناس ، فضلا عن النهب والسلب والخطف ، وسبى النساء ٠

٧ ـ رأى المصريون من العثمانيين وجنودهم من العسف والظلم ما جعلهم يئنون بالشكوى ويجأرون من الضغوط ، ويتمنون عودة الحكم الفرنسى ٠

٨ ـ لم يصف الجبرتى ما حدث بأنه ثورة ، وانما قال انها فتنة وهياج (هوجة) ٠

ذلك عما يقال انه ثورتان ضد الاحتلال الفرنسى، فماذا عن اغتيال كليبر ؟

محاكمة سليمان الحلبى

(ح) يقول الجبرتى عن وقائع محاكمة سليمان الحلبى ، قاتل كليبر قائد الجيش الفرنسى بعد نابليون. ان الفرنسيين « ألفوا فى شأن ذلك أوراقا ذكروا فيها صورة الواقعة وكيفيتها ، وطبعوا منها نسخا كثيرة باللغات الثلاث : الفرنساوية والتركية والعربية ... (و) رأيت كثيرا من الناس تتشوق نفسه الى الاطلاع عليها لتضمنها خبر الواقعة وكيفية الحكومة ، ولما فيها من الاعتبار وضبط الأحكام ، من هؤلاء الطائفة (أى الفرنسيين) الذين يحكمون العقل ... وكيف وقد تجارى (اجترأ) على كبيرهم ... رجل آفاقى (أفاق) أهوج ، وغدره (قتله) وقبضوا عليه ، وقرروه ، ولم يعجلوا بقتله وقتل من أخبر عنهم بمجرد الاقرار بعد أن عثرا عليه ووجدوا معه آلة (أداة) القتل مضمخة بدم سارى عسكرهم وأميرهم ، بل رتبوا حكومة (قضاء) ومحاكمة ، وأحضروا القاتل وكرروا عليه السؤال والاستفهام ، مرة بالقول ومرة بالعقوبة ، ثم أحضروا

من أخبر عنهم وسألوهم على انفراد ومجتمعين ، ثم نفذوا الحكومة (الحكم) فيهم بما اقتضاه التحكيم (الحكم) ... بخلاف ما رأيناه بعد ذلك من فعل أوباش العساكر الذين يدعون الاسلام ويزعمون أنهم مجاهدون ، وقتلهم الأنفس وتجاريهم (اجترائهم) على هدم البنية الانسانية بمجرد شهواتهم الحيوانية » .

« وصورة ترجمة الأوراق المذكورة : بيان شرح الاطلاع على جسم سارى عسكر (تقرير الصفة التشريحية باللغة القضائية المتداولة حالا) ... (المحرر بواسطة ، ... باش حكيم (حكيم أول) والجرايحى (الجراح) ... الذى صار مرتبة باش جرايحى (جراح أول أو كبير الجراحين) ... انتهينا حصة ساعتين بعد الظهر (بعد الظهر بساعتين) الى بيت سارى عسكر العام فى الأزبكية بمدينة مصر ... (لأننا) سمعنا دقة الطبل وغاغة الناس التى كانت تخبر (تفيد) أن سارى عسكر العام كليبر انغدر وقتل (قتل غدرا) ... فتحقق لنا أنه قد انضرب بسلاح مدبب وله حد ، وجروحاته كانت أربعة ... أول فحص (استجواب) سليمان الحلبى ... بدىء الفحص بحضور سارى عسكر مينو . والفحص صار (حدث)

بواسطة ··· كاتم سر سارى عسكر العام ، ومحرر من يد (أى بسكرتارية ، كاتب التحقيق) ··· سئل (المتهم) عن اسمه وعمره ومسكنه وصنعته ، فجاوب أنه يسمى سليمان ، ولادة بر الشام ، وعمره أربعة وعشرون سنة ، ثم صنعته كاتب عربى ، وكانت سكنته (سكناه) فى حلب ··· وجاوب (أجاب) بأنه من ملة محمد (أى مسلم) » · تلى ذلك بيان تفصيلى عن استجواب المتهم ، بنفس المنهج الذى يتبع بواسطة النيابة العامة فى التحقيقات المعاصرة · وجاء ضمن هذا الاستجواب « فلما كان المتهوم (المتهم) لم يضندق فى جواباته (اجاباته) أمر سارى عسكر أنهم يضربوه حكم عوائد البلاد فحالا انضرب (فضرب على الفور) لحد أنه طلب العفو ووعد أنه يقر بالصحيح (يقول الحق) فارتفع عنه الضرب وانفكت له سواعده ، وصار يحكى من أول وجديد ··· (فقال انه حضر من غزة لأجل أن يقتل سارى عسكر العام ··· (و) أنه أرسل من طرف أغات البنكجرية (العثمانيين) وأنه حين رجع عساكر العثملى من مصر الى بر الشام أرسلوا الى حلب بطلب شخص يكون قادرا على قتل سارى عسكر العام الفرنساوى ، ووعدوا لكل من يقدر على هذه المادة (هذا القتل) أن يقدموه فى الوجاقات ويعطوه دراهم

(أى يقدموا له مكافأة نقدية ، ومرتبـة اجتماعيـة عالية) ··· ولأجل ذلك تقدم هو وعرض روحه لهذا (أى عرض نفسه لواقعة قتـل كليبر) ··· وأنه ·· سكن فى الجامع الأزهر · وهناك شاف (رأى أو قابل ثلاثة من الحلبيين ذكر أسماءهم) فبلغهم عـلى مراده (عن هدفه) فهم أشاروا عليه أنه (أن) يرجع عن ذلك لآن (لأنه غير ممـكن) ·· وأنه (فى يـوم القتـل) فتبعه (أى تبع كليبر) لحين ما غدره (حتى قتله) · ثم انختـم (وقع) بامضاء سـارى مينـو (والمحقق والكاتب) ثم انقرأ (الاستجواب) على المتهوم (المتهم) ، وهو أيضا خط اسمه (أى وقع على المحضر) بالعربى ··· (تلى ذلك فحص أى استجواب الثلاثة مشايخ بذات الأسلوب المتبع فى التحقيقات فى الوقت الحالى ، وقال أحدهم أن سليمان « قال انه كان مراده يغازى (قصده أن يجاهد) فى سبيل الله · وأن هذه المغازاة هى قتل واحد نصرانى ولكن ما أخبر (لم يقل) باسمه ، وأنه قصد (استهدف أن) يمنعه بقوله ان ربنا أعطى القوة للفرنساوية ، ما أحد يقـدر يمنعهم (من) حـكم البلاد » ·

بعد ذلك يورد الجبرتى القرار القـاضى بانشاء محكمة لمحاكمة المتهمين فيقول عنـه « تأسيس (المـادة

الأولى) أن ينشأ ديوان قضاة لأجل أن يشرعوا (يحاكموا) على الذين غدروا (قتلوا) سارى عسكر كليبر ... (المادة الثانية) القضاة المذكورون يكونوا تسعة وهم ... (وفيهم تعيين محام للمتهم ووكيل للادعاء ... ثم تعيين سكرتير المحكمة ، وموعد لانعقادها) » .

تلى هذا ما يقول الجبرتى انه « شرح اجتماع القضاة (أى بيان وقائع جلسات المحاكمة) ... (فقد اجتمعت المحكمة) لأجل قضاء شريعة قتل سارى عسكر .. كاتم السر .. حلف (اليمين) كما هى العوائد .. ... والسكينة (السكين) التى وجدت مع القاتل .. تبقى عند كاتم السر (كما تكون الاحراز لدى أمين السر فى المحاكمات المصرية) ... (ثم بعد ذلك سماع أقوال الشهود جميعا بذات الأسلوب الذى يتم حالا فى كل المحاكمات الجنائية) ، وأعيد فحص (استجواب) سليمان الحلبى فقال . « انهم (العثمانيون) كانوا وصوه (أوصوه) أنه يروح ويسكن فى الجامع الأزهر ، وأن لا يعطى سره لأحد كليا (أبدا) بل يوحى لروحه ويكسب (يغتنم) الفرصة فى قضاء شغله (انهاء مهمته) لأنها دعوة (مهمة) تحب السر والنباهة ... وهو ما دعاهم (المقرئين الحلبيين الذين سبقت

الاشارة اليهم) لمساعدته ، لانه كان يعرفهم بليدين
(بلداء) ... وأنه ما أخذ (لم يأخذ) دراهم (نقودا)
من أحد في مصر لأن الأغوات (الأتراك) كانوا أعطوا
له كفايته ... (ثم قال) وأما من قبل (جهة) الاربعة
مشايخ (قراء) المذكورين .. أنه كان قال لهم كل شيء
لأنهم من أولاد بلاده ، ثم حقق (اكد) لهم انه ناوى أن
يغازى فى سبيل الله ... (وأضاف) أن أحمد آغا
(العثمانى) هو من جملة أغوات الوزير .. وأنه (أى
سليمان) شكا له من ابراهيم باشا متسلم (حاكم) حلب
الذى كان يظلم أباه الذى يسمى الحاج محمد أمين، بياع
(تاجر) السمن ، حططوه (فرضوا عليه) غرامات
زائدة ، ثم وقع فى عرضه .. وأن الأغا .. قال
له .. انه ما (لن) يقصر ، يوصيه (أى يوصى ابراهيم
باشا) فى راحة أبيه (والد سليمان) ولكن بشرط أنه
يروح يقتل أمير الجيوش الفرنساوية . ثم فى ثالث
ورابع يوم كرر عليه .. هذا السؤال ، وحالا أرسله الى
ياسين أغا فى غزة ، لأجل أن يعطى له مصروفه ...
(تمت بعد ذلك مواجهة المتهمين ببعضهم . بنفس
الأسلوب المنصوص عليه فى قانون الاجراءات
الجنائية) ثم حدث استجواب لباقى المتهمين (بما يقول
عنه الجبرتى فحص) ... وأثناء استجواب المتهم

مصطفى أفندى (الذى صدر الحكم ببراءته) قيل له ٠٠
هل انه ما يعلم (من) القرآن الا مشاديده (يقصدون الأحكام الشديدة الخاصة بالقتل) فجاوب نعم ، سئل هل أن القرآن يرضى بالمغازاة ويأمر بقتل الكفرة ، فجاوب انه ما يعرف ايش هى (ما هى) المغازاة (المجاهدة) التى القرآن ينبىء عنها ٠ سئل هل يعلم مشاديده ٠٠٠ فجاوب (أجاب) ٠٠٠ واحد اختيار مثله (عادى شأنه) ما له دعوة فى هذه الأشياء ، بل انه يعرف أن القرآن ينبى عن المغازاة وأن كل من قتل كافرا يكسب أجرا ٠٠ (ثم أضاف) وأما هو (أى المتهم مصطفى) يظن أن شرف الفرنساوية هو من شرف الاسلام ، واذا كان القرآن يقول غيره شيئا هو (فهو) ما له علاقة » ٠

بعد ذلك يذكر الجبرتى مرافعة الادعاء تفصيلا ، وفيها جاء « ٠٠ أهالى مصر ٠٠٠ كانوا محرومين شفقات ومكارم نصيرا (شفقة واكرام من ينصرهم) ، وفى دقيقة (لحظة) الذين هم أسارى ومجروحين العثملية ، هم مقبولين ومرعيين فى دور ضيوفنا (أى أنه مرضى عنهم مراعى أمرهم منا) ٠٠٠ وسليمان الحلبى شب (شاب) مجنون (لعله يقصد طائش !) وعمره أربعة وعشرون سنة ، وقد كان بلا ريب متدنس بالخطايا

(صاحب سوابق جنائية) ··· وباعتماده أن المسمى منه جهاد وتمليك الغير المؤمنين (قتل غير المؤمنين) ··· (و) انما ضابط ·· أقبضه (سلمه) الدراهم ··· وأظن أن يليق أن تصنعوا لهم (تحكموا على المتهمين) من العذابات العادية ببلاد مصر ··· (ثم يضيف الجبرتي بعد ذلك) ··· « الفتوى (الحكم) الخارجة من طرف ديوان القضاة (المحكمة) ··· واكى يحكموا ·· أمر سارى عسكر رينيه بحضور المتهومين (المتهمين) المذكورين قدام (أمام) القضاة ، وهم من غير قيد ولا رباط (بغير قيود كما هو الحال فى القوانين المعاصرة) بحضور وكيلهم (محاميهم) والأبواب مفتحة (مفتوحة) قدام (أمام) كامل الموجودين (أى فى علانية) ··· (ثم حدث أن) ·· قفل المحل (المكان) عليهم (على القضاة) لأجل يستشاروا بعضهم (للمداولة بينهم) من غير أن أحدا يسمعهم (دون حضور غريب عنهم) ··· (ثم) أفتوا (أى قضوا بالأحكام) ثم ان (أى ان) هذه الفتوى الشرعية (الحكم القانونى) تكتب ··· وينطبعوا (وتطبع) باللغة التركية والعربية والفرنسية (أى ينشر الحكم) ··· ثم ان القضاه حطوا خط يدهم بأسمائهم (أى وقعوا) برفقة (ومعهم توقيع) كاتم السر (سكرتير المحكمة) ··· ثم هذه الشريعة

والفتوى (الحكم أو الشرع) انقرت وتفسرت (قرئت وشرحت) على المذنبين ٠٠٠ » صفحة ١٢١ ـ ١٤٠ ٠

يضيف الجبرتي بعد ذلك « هذا آخر ما كتبوه فى خصوص هذه القضية رسموه وطبعوه بالحرف الواحد ، لم أغير شيئا ٠٠٠ اذ لست ممن يحرف الكلم ٠٠ (وبعد تشييع جنازة كليبر) « ٠٠ أحضروا سليمان الحلبى والثلاثة المذكورين فأمضوا فيهم ما قدر عليهم ٠٠٠ » صفحة ١٤٠ ٠

« وفي يوم ٠٠٠ حضر سارى عسكر عبد الله جاك مينو وقائم مقام ٠٠ وطافوا ٠٠ وأرادوا حفر (بحث) أماكن التفتيش على السلاح ونحو ذلك ، ثم ذهبوا فشرعت المجاورون به (بالجامع الأزهر) فى نقل أمتعتهم ونقل كتبهم واخلاء الأروقة ٠٠٠وكتبوا أسماء المجاورين فى ورقة وأمروهم أن لا يبيت عندهم غريب ، ولا يؤوا اليهم (أفاقا) مطلقا ٠٠٠ ثم ان الشيخ الشرقاى والمهدى والصاوى توجهوا فى عصريتها (عصر ذلك اليوم) عند كبير الفرنسيين واستأذنوه فى قفل الجامع وتسميره (وضع المسامير على أبوابه) ، فقال بعض القبطة (القبط) الحاضرين للأشياخ (الشيوخ) هذا لا يصح ولا يتفق (أى لا يجوز) فحنق ٠٠ الشيخ

الشرقاوى • وقصد المشايخ من ذلك منع الريبة بالكلية فان الأزهر سعة ، لا يمكن الاحاطة بمن يدخله ، فربما دس العدو (العثمانى) من يبيت به ، واحتج بذلك على انجاز غرضه ونيل مراده من المسلمين والفقهاء ، ولا يمكن الاحتراس من ذلك • فأذن كبير الفرنسيين بذلك لما فيه من موافقة غرضه باطنا (الذى فى نفسه)، فلما أصبحوا قفلوه وسمروا أبوابه من سائر الجهات » - صفحة ١٤١ •

الذى يستفاد مما كتبه الجبرتى نصا ــ على الرغم من اضطرابه وركاكته ــ ما يلى :

١ ــ سليمان الحلبى أفاق أهوج (بتعبير الجبرتى)، أى انه ليس بطلا وطنيا أو مجاهدا مسلما • كما تصوره بعض الروايات المختلطة ، التى تزيف الواقع وتحرف التاريخ ، وهى تركن الى ثقافة الاشاعات التى تبنى على الاشاعة الخاطئة واقعا لا أساس له ، وتقدم على الرواية المختلقة تاريخا ليس له سند •

٢ ــ عندما رفض الفرنسيون الخروج من مصر ، بناء على اتفاق تم على ذلك مع العثمانيين ، بعدما تحقق لهم أن هؤلاء (العثمانيين) يدبرون مكيدة مع الانجليز

لمحاصرة الفرنسيين فى عرض البحر (المتوسط)
وابادتهم ، لجأ العثمانيون الى تدبير مؤامرة لاغتيال
كليبر قائد الجيش الفرنسى فى مصر ·

٣ ــ توجه سليمان الحلبى الى أحد أغوات الوزير
العثمانى يشكو له من حاكم حلب الذى يضطهد والده
تاجر السمن ، ويفرض عليه أموالا طائلة ، فاصطاده
الأغا ووعده بالتوسط لدى حاكم حلب لوقف اضطهاد
والده ، شريطة أن يقوم هو باغتيال كليبر قائد
الفرنسيين ، على أن يكافئه عن ذلك بعطية مالية ، فضلا
عن الوجاهة الاجتماعية التى سوف يضفيها عليه ·

٤ ــ بعد الحاج قبل سليمان الحلبى ذلك ، فأعطى
قدرا من المال لتنفيذ مهمة القتل ·

٥ ــ حضر سليمان الى مصر وتوجه الى الجامع
الأزهر حيث يوجد المجاورون ، وقد كان آنذاك مأوى
لأى غريب ، فقابل أربعة من أبناء بلدته ، وحادثهم فى
مهمته ، غير أنه لم يطلب منهم عونا لما يعرفه عنهم من
بلادة ·

٦ ــ تتبع سليمان الحلبى كليبر حتى استطاع
قتله · وقد ضبط اثر القتل فاعترف به وأقر باسماء

المجاورين من ابناء بلدته الذين حادثهم فى واقعة اغتيال كليبر •

٧ ــ أجرى تحقيق ، وفقا لأصول التحقيقات المرسومة فى الوقت الحالى ، فى قوانين الاجراءات الجنائية ، فى كل البلاد المتحضرة •

٨ ــ صدر قرار بتشكيل محكمة لمحاكمة المتهمين ، وفيها تعيين دفاع عنهم • وانعقدت المحكمة فى علانية، وتم تدوين كل الاجراءات بواسطة سكرتير أو أمين سر المحكمة • وخلا القضاة للمداولة ثم أصدروا الحكم • وهى نفس الاجراءات المبينة فى كل كتب الاجراءات المدنية والجنائية فى العصر الحالى •

٩ ــ أثبت فى التحقيق أنه تم ضرب المتهم سليمان الحلبى ، وفقا لعوائد البلاد ، فشرع يقر بالحقيقة • فى حين أن سلطات التحقيق ، فى الوقت الحالى ، وفى كثير من البلاد ذات النظم الشمولية ، تمتنع عن اثبات أى تعذيب يكون قد لحق بالمتهم ، وترفض احالته الى الطب الشرعى لبيان اصاباته وسببها ، حتى لا يؤثر ذلك سلبا على اعترافاته ، فيزعزع يقين المحكمة عن الاقتناع بها •

١٠ ــ طلب الادعاء أن يكون الحكم على المتهمين وفقا للعوائد المصرية ، وهى أساليب وعادات أوجدها العثمانيون . مثل الخوزقة (أى الوضع على الخازوق) والتوسيط (اى قطع جسم الانسان من وسطه) أو السلخ (أي سلخ جلده من كل جسمه) أو التمزيق (أى ربط كل من يديه ورجليه بأربعة أحصنة تضرب بشدة فيجرى كل منها فى اتجاه ، مما يؤدى الى تمزيق جسم المذنب أو الضحية) •

وصدر الحكم فعلا باعدام سليمان الحلبى بالوضع على الخازوق • وأثبت الجبرتى تنفيذ الأحكام فى سطرين ، دون أن يبدى فزعا أو جزعا أو هلعا ، أو يستغرب العقوبة أو يستنكر التنفيذ ، لأن هذه العقوبات . وأسلوب تنفيذها ، كان أمرا شائعا جاريا ، قبل عصره وأثناء حياته •

١١ ــ كانت اجراءات التحقيق ، ونظام المحاكمة ، أمرا عجبا لدى الجبرتى ، المؤرخ الأزهرى ، وبطبيعة الحال كان وقعها أشد عجبا لدى غيره ، وهو الأمر الذى دفع الناس الى التساؤل عنها ، ودفع الجبرتى الى شرحها بالتفصيل ، كأنها أعجوبة أو نادرة ، وهو يستغرب قبل ذكر التفاصيل من أن الفرنسيين لم يقتلوا القاتل

وشركائه فور اقراره • وهو ما يعني أن هذا الأسلوب ، في القتل بمجرد الاقرار ، أو بدون اقرار ، كان هـو الأسلوب المتبع في مصر ، خـلال العصر العثماني والمملوكي • يؤكد ذلك أن الجبرتي حرص على أن يثبت أن « أوباش العساكر الذين يدعون الاسلام ويزعمون أنهم مجاهدون يجترءون عـلى ازهاق الأرواح لمجـرد ما فيهم من شهوة حيوانية » •

١٢ ـ لم يوصف المتهمون بأنهم مذنبون الا بعـد صدور الحكم ، وذلك مما يفيد اعمال القاعدة القانونية التي تتأدى في أن « المتهم برىء حتى تثبت ادانته » ، وهي عكس القاعدة التي تقوم عليها النظم الشمولية والتي مؤداها أن « كل شخص مذنب أو مدان حتى يثبت براءته » •

١٣ ـ قالة أن الجهاد والمغـازاة (من الغـزو) تكـون بالقتـل ، وبقتـل الكفـار ، وأن من يقتـل كافـرا انما يؤجـر عـلى ذلك (من الله) قالة بدأها العثمانيون ، ولقنوها لسليمان الحلبي كغطاء لجريمته و كحافز للقتل ، لكن ، لا سليمان ولا مصطفى (الذى برىء) قدم أسانيد من القرآن أو دلائل من السنة عليها ، وهي من ثم مجرد قول سماعي ورأى اشاعي •

١٤ ـ استخدم الجبرتى فى مفرداته لفظ الحكومة بمعنى القضاء ، والتحكيم بمعنى القضاء كذلك ، وهو الاستعمال الصحيح للفظين ، ذلك أن لفظ الحكم فى القرآن يعنى القضاء فى خصومة ، كما أن لفظ التحكيم يفيد هذا المعنى • فحكومة النبى ﷺ كانت تحكيما ، بحيث يلجأ اليه الخصوم طائعين مختارين ، وينفذون الحكم طائعين مختارين ، وهو مفهوم غير المفهوم الصادر عن المحاكمة التى قضت فى واقعة اغتيال كليبر ، غير أن الجبرتى كان أسير الاستعمال الدارج والسابق للفظين منذ عهد ما قبل الاسلام حتى عصره هو •

ومن جانب آخر ، فقد استخدم الجبرتى لفظ الشريعة أكثر من مرة للاشارة الى القانون أو النظام ، دون أن يرى أن اللفظ يقتصر على الشريعة الاسلامية وحدها •

هذا الذى سلف وصفه تفصيلا ، عن محاكمة قاتل كليبر وأعوانه ، يدل بوضوح لا لبس فيه ، ويقطع بصراحة لا شائبة عليها ، أنه لم تكن توجد فى هذا العصر وقبله ، أى محاكم ، ولا نظم للمحاكمات ، ولا اجراءات للتقاضى ، على عكس ما يشيع الشائعون ويرجف المرجفون، بل كان القتل يتم بلا سبب والاعدام

يحدث بغير محاكمة ، كما ذكر الجبرتي . وكما سوف يذكر وننقله عنه فيما بعد •

كذلك فان الجبرتي استعمل لفظ الفتوى في الاشارة الى الحكم • مما يفيد اختلاط معنى الافتاء بمعنى القضاء في ذهنه وفي الفهم الاجتماعي عامة •

نتيجة لعدم وجود نظام للمحاكم . فان الفرنسيين بدأوا في اقامة هذا النظام بصورة عصرية • فلقد سلف بيان أن نابليون رفض قبول وجود من كان يسمى قاضي عسكر ، وهو شخص رومي يعين من قبل السلطنة العثمانية ليرأس القضاة في مصر ، وهو الذي يعينهم • وقد طلب نابليون من المشايخ أن ينتخبوا بدلا منه شيخا متضلعا يكون مصريا ابن مصري في اتجاه لتمصير القضاء والادارة في مصر • وتلى ذلك ما يقول عنه الجبرتي « شرعوا في جلسة الديوان ، وصورته أنه اذا تكامل حضور المشايخ يخرج اليهم الوكيل وصحبته المترجمون ، فيقفون له فيجلس معهم ويقف الترجمان الكبير • • • ويجتمع أرباب (أصحاب) الدعاوى فيقفون خلف الحاجز عند آخر الديوان ، وهو من خشب مقفص وله باب كذلك ، وعنده الجاويش يمنع الداخلين خلاف أرباب الحوائج ، ويدخلهم بالترتيب ، الأسبق فالأسبق،

فيحكي صاحب الدعوى قضيته . فيترجمها له الترجمان، فان كانت من قضايا الشريعة فاما أن يتمها قاضى الديوان بما يراه العلماء ،ويرسلوها الى القاضى الكبير بالمحكمة ان احتاج الحال فيها الى كتابة حجج او كشف من السجل ... وان كانت من غير جنس القضايا الشرعية كأمور الالتزام أو نحو ذاك ... يكتب الكاتب العربى ... في سجل كل ما قال المدعى والمدعى عليه. وما وقع فى ذلك من المناقشة ، وربما حكم قاضى الديوان فى بعض ما يتعلق بالأمور الشرعية . ومدة الجلسة من قبل الظهر بثلاث ساعات (أى حوالى التاسعة صباحا) الى الأذان (أذان الظهر ؟) أو بعده بقليل ، حسب الاقتضاء ... ورتبوا لكل شخص من مشايخ الديوان التسعة ، أربعة عشر ألف فضة فى كل شهر ، عن كل يوم (أى بواقع كل يوم) أربعمائة نصف فضة . وللقاضى والمقيد (الذى يتولى قيد القضايا) والكاتب العربى والمترجمين وباقى الخدم مقادير متفاوتة تكفيهم وتغنيهم عن الارتشاء » . صفحة ١٤٥ .

وتبع ذلك أن « قرىء تقليد الشيخ أحمد العريشى بقضاء مصر ، .. وتقليد القضاء بدمياط لأحمد أفندى عبد القادر ، وابيار العلامة الشيخ رضوان نجا،

ومحلة مرحوم للشيخ عبد الرحمن الرشيدى » .
صفحة ١٥١ .

بهذا بدأ نظام جديد للقضاء ، كان غريبا بغير شك على الناس ، بدليل ما يلحظ فى طريقة وصف الجبرتى للمحكمة (التى يسميها ديوان) ولطريقة انعقاد الديوان ، ونظام نظر القضايا . وتسجيل كل ما يجرى فى كل قضية واحالة القضايا التى تحتاج الى كتابة حجج أو كشوف الى قاض آخر ، وأخذ رأى القاضى العضو فى الديوان فى المسائل الشرعية التى تعرض فى القضايا .

والمهم فى هذا النظام أنه قصد تمصير القضاء ، باشتراط أن يكون القاضى مصريا ابن مصرى ، وأبطل نظام قاضى عسكر الرومى ، هذا فضلا عن تخصيص مرتبات مجزية لأعضاء الديوان ، والقضاة ، والكتبة ، والحجاب ، مما يغنيهم عن الرشوة من الخصوم وأصحاب القضايا .

الخطاب الفرنسى للمصريين

قال نابليون بونابرت : لقد حكمت شعبا مسلما فادعيت الاسلام ، وحكمت شعوبا مسيحية فانتحلت الكثلكة ، ولو حكمت شعبا يهوديا لأعدت بناء هيكل سليمان • وهذا القول ، يعنى أن نابليون كان يعرف تماما قواعد اللعبة ، فيما يتعلق بالدين والسياسة ، هذه القواعد التى يكاد يلعبها ، ان بكفاية وان بقصور أغلب الحكام وأكثر الساسة ، وان لم يعبروا عن ذلك بدقة ووضوح ، كما عبر نابليون •

ومقتضى ذلك ضرورة متابعة الخطاب الفرنسى للمصريين ، منذ بدأت الحملة الفرنسية وحتى انتهت • ذلك بأن هذا الخطاب لم يكن واحدا، ولم يستمر ثابتا ؛ انما تدرج وتنوع ، وتغير وتطور ، وفقا للأحداث وتبعا للمناسبات ، وانه كان ينتظمه على الدوام خط دينى واضح •

يقول الجبرتي : « وردت الأخبار بأن الفرنسيس وصلوا الى دمنهور ورشيد . وخرج معظم أهل تلك البلاد على وجوههم فذهبوا الى فوة ونواحيها ، والبعض طلب الأمان وأقام ببلده ، وهم العقلاء ، وقد كانت الفرنسيس حين حلولهم بالاسكندرية كتبوا مرسوما (منشورا) وطبعوه وأرسلوا منه نسخا الى البلاد التى يقدمون عليها ، تطمينا لهم . ووصل هذا المكتوب مع جملة من الأسارى (الأسرى) الذين وجدوهم بمالطة وحضروا صحبتهم ، وحضر منهم جملة (جماعة) الى بولاق، وذلك قبل وصول الفرنسيس بيوم أو بيومين ، ومعهم منه عدة نسخ ، ومنهم مغاربة وفيهم جواسيس ، وهم على شكلهم من كفار مالطة ويعرفون باللغات ، وصورة ذلك المكتوب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، لا اله الا الله ، لا ولد له ولا شريك له فى ملكه . من طرف الفرنساوية المبنى على أساس الحرية والتسوية (المساواة) السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية ، بونابارته ، يعرف أهالى مصر جميعهم أن من زمان مديد (بعيد) الصناجق (المماليك) الذين يتسلطون فى البلاد المصرية يتعاملون (يعاملون) بالذل والاحتقار فى حق الملة الفرنساوية ،

ويظلمون تجارها بأنواع الايذاء والتعدى ، فحضر الآن ساعة عقوبتهم . واخرنا (أرجأنا) من مدة عصور طويلة (؟) هذه الزمرة المماليك المجلوبين من بلادالابازة والجراكسة ، يفسدون فى الاقليم الحسن الأحسن الذى لا يوجد فى كرة الأرض كلها .

فأما رب العالمين القادر على كل شيء فانه قد حكم على انقضاء دولتهم . يا أيها المصريون : قد قيل لكم اننى ما نزلت بهذا الطرف (المكان) الا بقصد ازالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه ، وقولوا للمفترين اننى ما قدمت اليكم الا لأخلص حقكم من يد الظالمين ، واننى أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم . وقولوا أيضا لهم ان جميع الناس متساوون عند الله ، وأن الشيء الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط . وبين المماليك والعقل والفضائل تضارب، فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبو (يستحقوا) أن يتملكوا مصر وحدهم ويختصون بكل شيء أحسن فيها ، من الجوارى الحسان والخيل العتاق والمساكن المفرحة ، فان كانت الأرض المصرية التزاما (أى حقا) للمماليك فليرونا الحجة التى كتبها الله لهم ، ولكن رب العالمين رؤوف

وعادل وحليم ، ولكن بعونه تعالى من الآن فصاعدا لا ييأس أحد من أهالى مصر عن الدخول فى المناصب السامية وعن اكتساب المراتب العالية . فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم (بين المصريين) سيدبرون الأمور وبذلك يصلح حال الامة كلها ، وسابقا (قديما) كان فى الأراضى المصرية المدن العظيمة والخلجان الواسعة والمتجر المتكاثر (المتاجر الكثيرة) وما أزال ذلك كلها الا الظلم والطمع من المماليك . أيها المشايخ والقضاة والأئمة والجربجية (الشوربجية) وأعيان البلد ، قولوا لأمتكم ان الفرنساوية هم أيضا مسلمون مخلصون ، واثبات ذلك أنهم قد نزلوا فى رومية الكبرى (روما) وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان دائما يحث النصارى على محاربة الاسلام ، ثم قصدوا جزيرة مالطة وطردوا منها الكورللرية الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين .

ومع ذلك (فان) الفرنساوية فى كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثمانى وأعداء أعدائه ، أدام الله ملكه .

ومع ذلك فان المماليك امتنعوا من (عن) اطاعة السلطان غير ممتثلين لأمره ، فما أطاعوا أصلا الا لطمع

أنفسهم • طوبى ثم طوبى لأهالى مصر الذين يتفقون معنا بلا تأخير فيصلح حالهم وتعالى (تعلو) مراتبهم • طوبى أيضا للذين يقعدون فى مساكنهم غير مائلين (منحازين) لأحد من الفريقين المتحاربين فاذا عرفونا بالأكثر (أكثر) تسارعوا الينا بكل قلب • لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون على المماليك فى محاربتنا ، فلا يجدون بعد ذلك طريقا الى الخلاص ولا يبقى منهم أثر ••• الواجب على المشايخ والعلماء والقضاة والأئمة أنهم يلازمون وظائفهم ، وعلى كل أحد (شخص) من أهالى البلدان أن يبقى فى مسكنه مطمئنا ، وكذلك تكون الصلاة قائمة فى الجوامع على العادة • والمصريون بأجمعهم ينبغى أن يشكروا الله سبحانه وتعالى لانقضاء دولة المماليك و (لأنه) أصلح حال الأمة المصرية » •

(وقد كتب التاريخ بتقويم الثورة الفرنسية ، فأضاف الجبرتى يقول : يعنى فى آخر شهر محرم سنة هجرية • (١٢١٣ هـ) • صفحة ٤ ـ ٥ •

وبعد دخول الفرنسيين الى مصر (القاهرة) جمعوا المشايخ والأعيان والتجار والعلماء وقرأوا عليهم كتابا جاء فيه « ••• بأن قطر مصر هو المركز الوحيد، وأنه أخصب البلاد ، وكان يجلب اليه المتاجر (التجارة)

من البلاد البعيدة ، وأن العلوم والصنائع والقراءة والكتابة التي يعرفها الناس في الدنيا . أخذت عن أجداد أهل مصر الأول ، ولكون قطر مصر بهذه الصفات طمعت الأمم في تملكه ، فملكه اهل بابل وملكه اليونانيون والعرب والترك الآن . الا أن دولة الترك شددت في خرابة لأنها اذا حصلت الثمرة قطعت عروقها ، فلذلك لم يبقوا بأيدى الناس الا القدر اليسير ، وصار الناس لأجل ذلك مختفين تحت حجاب الفقر وقاية لأنفسهم من سوء ظلمهم . ثم ان طائفة الفرنساوية بعدما تمهد أمرهم وبعد صيتهم بقيامهم بأمور الحروب اشتاقت نفوسهم لاستخلاص (انقاذ) مصر مما هى فيه ، واراحة أهلها من تغلب هذه الدولة المفعمة جهلا وغباوة ، فقدموا وحصل لهم النصرة . ومع ذلك لم يتعرضوا لأحد من الناس ولم يعاملوا الناس بقسوة ، وان غرضهم تنظيم أمور مصر واجراء (انشاء أو تطهير) خلجانها التى دثرت (اندثرت أو ردمت) ويصير لها طريقان ، طريق الى البحر الأسود وطريق الى البحر الأحمر ، فيزداد خصبها وريعها ، ومنع القوى من ظلم الضعيف ، وغير ذلك ، استجلابا لخواطر أهلها وابقاء للذكر الحسن . فالمناسب من أهلها ترك الشغب ، واخلاص المودة . وأن هذه الطوائف المحضرة (الحاضرة)

من الأقاليم يترتب على حضورها أمور جليلة ، لأنهم أهل خبرة وعقل ، فيسألون عن أمور ضرورية ويجيبون عنها ، فينتج لصارى عسكر من ذلك ما يليق (ما يحسن) صنعه ... » ثم يضيف الجبرتى قائلا عن نفسه « ولم يعجبنى فى هذا التركيب (البيان) الا قوله (عن الترك) المفعمة جهلا وغباوة ... وقوله .. ومع ذلك لم يتعرضوا (أى الفرنسيون) لأحد . الى آخر العبارة » صفحة ٢٣ ، ٢٤ .

وهذا الخطاب الأول من الفرنسيين للمصريين يتضمن البنود التالية :

١ ـ التأكيد على أهمية الاسلام ، وأنهم (الفرنسيون) غير معادين للمسلمين ، ولم يغزوا مصر لازالة الاسلام ، كما قيل المصريين (ربما من المماليك وحواشيهم) . وفى هذا المعنى ، فان المنشورات التى كانت توزع على البلاد قبل وصول الجيش الفرنسى اليها ، تضمنت فى أولها البسملة ، ونفى الولد والشريك عن الله ، والدعوة الى استمرار اقامة الصلاة فى الجوامع .

٢ ــ اللجوء الى الفكر الجبرى السائد ، والفهم القدرى الدارج ، لفرض استسلام المصريين للغزو الفرنسي ، قولا بأن « رب العالمين أمر بانقضاء دولة المماليك » ، فاذا قر لدى الناس أن هذا قضاء الله ، فانهم لا شك سوف يخضعون له ، ولا يقاومونه ، اذ لا تجدى أى مقاومة فى تغيير القضاء أو تبديل القدر (فى الفهم الدينى التقليدى الجبرى) ٠

وهذه الفكرة الجبرية القدرية ، سوف تتسع وتتزيد فى الخطاب الفرنسى ، كما سيلى بيانه ٠

٣ ــ الحديث عن مصر والمصريين ٠ فذلك هو ابتداء تأسيس فكرة الدولة الوطنية ، تلك الدولة التى كانت قد انمحت من فكر المصريين وفهمهم ، ربما منذ الغزو الفارسى لها سنة ٥٢٥ ق٠م٠ وخلال العهد المسيحى كانت مصر جزءا من العالم المسيحى ، واذا كانت للكنيسة المصرية مواقف وطنية واتجاهات استقلالية ، فقد كان المركز والأساس فى ذلك هو الكنيسة الأرثوذكسية (المستقيمة) وليس مصر ذاتها كوطن ٠ وفى العصر الاسلامى كان المسلمون فى البداية هم قبائل الأعراب التى وقع بها الغزو العربى ، بينما كان المصريون يسمون بالقبط ، نسبة الى لفظ Gypt

الذى أطلقه الاغريق على مصر • وظلت غالبية المصريين مسيحية (قبطية) حتى بدأ التحول الجماعى الى الاسلام ، ابان الحكم الفاطمى (المغربى البربرى الاسماعيلى) ، ومن ثم صار الناس مسلمين من جانب وأقباطا من جانب آخر • وأثناء الحكم العثمانى الذى بدأ سنة ١٥١٧ أصبح الجميع رعايا عثمانيين • ولهذا فان توجيه خطاب الى أبناء مصر بلفظ المصريين ، لا الرعايا ، ولا المسلمين والأقباط ، يعد خطابا جديدا بغير شك ، كما أن الخطاب عن مصر وحدها ، هو مفهوم جديد ، وارد ووافد •

٤ ــ تحديد مبدأ المساواة كأساس بين الناس ، بحيث لا تكون المفاضلة بينهم الا بالعقل والعلم والفضائل (الخلق) ، هو مفهوم جديد لدى المصريين الذين ــ على الرغم من تأكيد القرآن والاسلام عليه ــ درجوا آزمانا على الاحساس بالمذلة والمهانة ، وعدم المساواة ، بالأعراب والترك والمماليك وحواشيهم • ومبدأ المساواة بهذا المعنى هو بلا شك أساس الدولة المدنية المعاصرة •

٥ ــ حق المصريين فى التأهل للمناصب السامية واكتساب المراتب العالية ، خطاب مستحدث لهم ، فقد

ظللوا أجيالا بعد أجيال وهم يلزمون الاقتصار على التجارة والفلاحة ، حيث تكون المناصب السامية للغرباء المحتلين وتكون المراتب العانية لغير المصريين من الغزاة والأجانب ، بل وحتى العبيد •

٦ ـ اثارة التساؤل عن حق المماليك فى الاستيلاء على مصر ، هو استثارة للتفكير العقلى بدلا من التسليم الجبرى ، قولا أو فهما ، بأن تلك مشيئة الله ، وارادة السلطان ، وحكم المقادير • وهذا التساؤل يضع فى مفهوم الناس معنى جديدا بالنسبة اليهم ، مقتضاه أن عليهم أن يتساءلوا عن الحق والسبب الذى يستند اليه أى حاكم فى الحكم •

٧ ـ المعرفة الواعية الشاملة بتاريخ مصر : فالفرنسيون لا يبلغ بهم اعتزازهم ببلادهم أن ينسبوا اليها كل شيء ، وأن يبتدءوا بها كل تاريخ ، لكنهم يقرون بحقيقة غائبة حتى عن أبناء مصر ، فيذكرون ويؤكدون أن مصر هى الاقليم الحسن الأحسن فى كل الكرة الأرضية ، وأنها أخصب البلاد ، وأن العلوم والصناعة والقراءة والكتابة بدأت منها هى ثم انتشرت فى العالم • هذا وأن خصوبتها ، وثراءها ، هو الذى دفع الأمم الى الطمع فيها ، فتملكتها بابل (الأشوريون)،

واليونانيون ، والعرب والترك (العثمانيون) · وهؤلاء الترك شددوا فى خراب مصر ، فأفقروا الناس وظلموهم ·

٨ ـ رسم تخطيط مستقبلى لوضع مصر الداخلى والدولى . بتنظيم أمورها (كما حدث فى الوضع الادارى باكمله) ، وانشاء أو تطهير الخلجان (جمع خليج) وتمهيد طريق الى البحر الأسود (عبر الشام نحو آسيا الوسطى وأوربا الشرقية) وطريق الى البحر الأحمر (نحو بلاد العرب والبلاد الآسيوية كالهند والصين وغيرها) ·

٩ ـ وضع أسس التعامل الاجتماعى ، بمنع القوى من ظلم الضعيف (وهو تعبير اسلامى ورد فى خطبة أبى بكر فور مبايعته بالخلافة) ، وحق الجميع من المصريين فى تولى المناصب ، وجعل أساس المفاضلة هو العقل والعلم والفضائل ، بدلا من العلاقات الخاصة والروابط العائلية او الجنسية ، وتقرير مبدأ انتخاب الحكام (الذى يشير اليه الجبرتى بلفظ القرعة) · مثال ذلك : « نريد منكم يا مشايخ أن تختاروا شخصا منكم يكون كبيرا أو رئيسا عليكم ··· فقال بعض الحاضرين : الشيخ الشرقاوى ، فقال ··· (لا) وانما

ذلك يكون بالقرعة (أى الانتخاب) فعملوا القرعة بأوراق فطلع الأكثر (أكثر الأصوات) على الشيخ الشرقاوى ، فقال ... يكون الشيخ عبد الله الشرقاوى هو الرئيس » صفحة ٢٤ .

١٠ ـ استعمال تعبيرات جديدة ، ترجمة عن اللغة الفرنسية ، أهمها لفظ دولة للاشارة الى معنى التداول أو معنى الدولة المعاصر Etat, State ، فيما قيل عن دولة المماليك (بمعنى الحكم الذى دوول بينهم من اللفظ القرآني دولة بمفهوم التداول) وما قيل عن دولة الترك (يقصد العثمانيين) وهى دولة بالمعنى المستحدث. المقابل للفظ الانجليزى State **واللفظ** الفرنسي Etat

مما هو جدير بالملاحظة ما ذكره الجبرتى عند سماع الخطاب الذى تلى على كبار المصريين من اعجابه بما جاء فى هذا الخطاب عن الترك من أنهم الجماعة (الأمة) المفعمة (الممتلئة) جهلا وغباوة ، وما جاء فيه من أن الفرنسيين لم يتعرضوا لأحد ولم يعاملوا الناس بقسوة ، وأن غرضهم هو تنظيم مصر (الى آخر الخطاب الوارد نصه فيما سلف) .

والالحاح على المعنى الدينى فى الخطاب الفرنسى، واضح مما سلف بيانه من أن بعض صغار المشايخ

كانــوا قد اتجهــوا الى مكان الجيش الفرنسى بمنطقــة الجيزة ، فلما قابلوا نابليون قال لهم « ســوف نعمــل لكم ديوانا لأجــل راحتــكم وراحة الرعيــة واجــراء الشريعة » صفحة ١٠ ، أى تطبيق الشريعة • ففــكرة تطبيق الشريعــة لم تجىء عــلى ألســنة أو فى مطالب المشايخ ، ولا رفعها أحد من الشعب المصرى ، ولا كانت فى الخطاب العثمانى أو الحكم المملوكى ، لــكن الذى ابتدأها هم الفرنسيون •

وقد اتخذ الخطاب الفرنسى بعــد ذلك خطا دينيــا بارزا ، من الواضح أنه كان من عمل أو مساعدة بعض المشايخ المصريين أو المسلمين ، فى مشــورة أو خــدمة الفرنسيين ، وهــذا ما لاحظه الجبرتى نفســه اذ قال « كتبــوا (أى الفرنســيون) أوراقا وطبعــوها ، وألصقوها بالأســواق ، وهى من ترصــيف (انشاء) وتنميق بعض الفصحاء » صفحة ٧٣ •

ما الذى طوره ، ونماه ، هــؤلاء الفصــحاء ، أو آمنوا فعبروا عنه ، فى الخطاب الفرنسى • انها فكرة الجبرية بالذات ، التى تدعوا الناس الى الاستسلام لمــا هو مقدر عليهم فى ارادة الله الأزلية ، بما لا يمكن أن يغيره انسان أو يبدله عمل •

ففى رسالة لبونابرت ، يؤرخها الجبرتى فيقـول على لسان القائد الفرنسى « استمروا فى محلكم ووطنكم مطمئنين ومرتاحين ، وأخبروا من كان خارجا عن محله ووطنه ان يرجع ويقيم فى محله ووطنه ، ومن قبلنـا (ناحيتنا) عليكم ثم عليهم الأمان الكافى الحماية التامة ... ان كل خير يأتى من الله تعالى ، وهو يعطى النصر من يشاء » صفحة ٤٩ .

ومن خطاب نابليون الى المصريين بعـد غزو يافا « سبحان مالك الملك ، يفعـل فى ملكه ما يريده ... هذه صورة تمليك الله سبحانه وتعالى جمهور الفرنساوية لبندر يافا (تم) كل شيء بقضائه (قضاء الله) فلا ينفع الهروب من القدر المكتوب ... استقيموا عباد الله ، وارضوا بقضاء الله ، ولا تعترضوا على أحكام الله .. » صفحة ٥١ ـ ٥٣ .

وفى كتاب آخر لنابليون ، يرصد الجبرتى قوله « السبب فى مجيء هذه العمارة (الأسطول أو الجيش ، ومن هذا اللفظ نحت لفظ الاستعمار » الى هذا الطرف (المكان) العشم (الرجاء) بالاجتماع عـلى المماليـك والعربان لأجل (الذين اجتمعـوا عـلى) نهب البـلاد خراب القطر المصرى ... هو الرحمان الرحيم المساعد

المعين المقوى (الذى يقوى) العاملين الموحدين ، الماحق رأى الفاسدين المشركين ، وقد سبق فى علمه القديم وقضائه العظيم أنه أعطانى هذا الاقليم وقدر وحكم بحضورى عندكم الى مصر لأجل (من أجل) تغييرى الأمور الفاسدة ، وأنواع الظلم ، وتبديل ذلك بالعدل والراحة ، مع صلاح الحكم » صفحة ٧٩ ٠

وفى كتاب لنابليون (بعد الحركة الأولى ضد الفرنسيين) « ٠٠ نعلمكم أن بعض الناس الضالين العقول ، الخالين من المعرفة وادراك العواقب سابقا (مسبقا) أوقعوا الفتنة والشرور بين القاطنين بمصر ، فأهلكهم الله بسبب فعلهم ونيتهم القبيحة ٠ والبارى سبحانه وتعالى آمرنى بالشفقة والرحمة على العباد ، فامتثلت (ل) أمره ، وصرت رحيما بكم شفوقا عليكم ٠٠ أيها العلماء والأشراف أعلموا أمتكم ومعاشر رعيتكم بأن الذى يعادينى ويخاصمنى انما خصامه من ضلال عقله وفساد فكره ، فلا يجد ملجأ ولا مخلصا ينجيه فى هذا العالم ، ولا ينجو من بين يدى الله تعالى وارادته وقضائه ٠ ومن يشك فى ذلك فهو أحمق وأعمى البصيرة ٠ وأعلموا أيضا أمتكم أن الله قدر فى الأزل هلاك أعداء الاسلام ٠٠٠ على يدى ، وقدر فى الأزل

أني أجيء من المغرب (الغرب) الى أرض مصر لهــلاك الذين ظلموا فيهــا واجــراء الأمــر الذى أمرت به ٠ ولا يشــك العــاقل أن هــذا كله بتقدير الله وارادته وقضائه ٠ وأعلموا أيضا أمتــكم أن القــرآن العظيــم صرح فى آيات كثيرة بوقوع الذى حصل ، واشــار فى آيات أخرى الى أمور تقع فى المستقبل ٠ وكلام الله فى كتابه صدق وحق ، لا يتخلف اذا تقرر ٠ هذا وثبتت (تثبت) هــذه المقالات فى آذانكم ، فلترجع أمتــكم جميعا الى صفاء النية واخلاص الطوية ، فان منهم من يمتنع عن الغى واظهار عداوتى خوفا من سلاحى وشدة سطوته ولم يعلموا أن الله مطلع عــلى السرائر ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، والذى يفعــل ذلك (يظهر الطاعة ويخفى الحقد) يكون معارضا لأحــكام الله ، ومنافق ، وعليــه اللعنة والنقمة من الله عــلام الغيوب ٠ واعلموا أيضا أنى أقدر عــلى اظهار ما فى نفس كل أحد منكم ، لأننى أعرف أحــوال الشــخص وما انطوى عليه بمجرد ما أراه ، وان كنت لا أتكلم ولا أنطق بالذى عنده ، ولكن يأتى وقت ويــوم يظهر لكم بالمعاينة أن كل ما فعلته ، وحكمت به فهو حــكم الهى لا يرد ، وآن اجتهاد الانسان غاية جهده ما (لا) يمنعه

(يؤيده) عن (تغيير) قضاء الله الذى قدره وأجراه على يدى ... » صفحة ٣٨ ، ٣٩ .

هذا خطاب شرقي صرف ، بعيد كل البعد ، عن الفكر الغربى فى عصر الحملة الفرنسية ، وفكر نابليون بونابرت ، وانما يغلب التقدير بأن من قال الجبرتى عنهم انهم بعض الفصحاء ، من المشايخ ، قد كتبوه له ، بل وربما أفهموه أن هذا الخطاب وحده هو الذى يمنع اى حركة ضد الجيش الفرنسى ، خاصة وأن العثمانيين كانوا قد شرعوا يثيرون المقاومة ضد هذا الجيش بالركون الى الدين ووصف الفرنسيين بالكفر ، وهو ما يشير اليه الجبرتىفيقول نصا« .. حضر هجان من ناحية الشام وعلى يده مكاتبات ، وهى صورة فرمان عليه طرة (خاتم) ومكتوب من أحمد باشا الجزار (والى عكا الذى لقب بالجزار لكثرة مجازره بقتل الناس من المسلمين وغير المسلمين) ، وآخر من بكر باشا ... خطابا للمشايخ ، وذلك كله بالعربى . ومضمون ذلك بعد براعة الاستهلال والآيات القرآنية والأحاديث والآثار (المأثورات) المتعلقة بالجهاد ، ولعن طائفة الافرنج والحط عليهم ، وذكر عقيدتهم الفاسدة ... فأخذها مصطفى باك كتخدا وذهب بها الى صارى عسكر

(نابليون) فلما آطلع عليها قال هذا تزوير من ابراهيم بك (ثانى اثنين كانا يحكمان مصر ، مع مراد بك، الذى سلف بيان الجبرتى عنه) ليوقع بيننا وبينكم العداوة والمشاحنة » صفحة ٢٩ .

المماليك ، الذين أفاض الجبرتى فى وصف ظلمهم وبطشهم وسوء خلقهم ، ولم يقل فى أحد منهم كلمة حسنة ؛ والعثمانيون ، الذين هم بالمعنى العربى فرنجة لأنهم لا يتكلمون العربية ، وكل ما هو غير عربى فهو أعجمى ـ فى لغة القرآن وفهم المسلمين ، هؤلاء العثمانيون الذين تركوا حكم مصر للمماليك، فأفقروها بلدا واذلوا المصريين شعبا ، عندما نازعهم على ملكهم لمصر ، بقرتهم الحلوب ، ومرتع لهوهم وعبثهم ، جيش فرنسي ، رفعوا رايات الجهاد ، وركنوا الى آيات القرآن وأحاديث النبى ﷺ ومأثورات المسلمين ، يكتبونها باللغة العربية ، التى لم يتكلموا بها قط ، حتى اليوم ، لكى يتهموا الغير بالكفر ، ولم يتذكروا أو يذكروا آية واحدة تبرر ظلم الانسان لأخيه الانسان ، وتخول لهم حق استعباد المصريين واستذلالهم أبناءها من المسلمين والأقباط وغيرهم .

ونتيجة لهذا الخطاب الديني بالتكفير والجهاد ، فقد لجأ نابليون ــ بارشاد الفصحاء من المشايخ ــ الى اللجوء الى الخطاب الديني المغرق في فرض الجبرية وفي قبول الاستسلام ، فقال ان مجيئه الى مصر حدث بأمر الله ، وأن نصره مكتوب في قضاء الله الأزلي ، وأن من يعارض هذا القضاء ، انما يعارض الله ذاته ، ثم انتهى الى مبدأ حاكمية الله ، ذلك بأن حكمه هو حكم الله ، وارادته هي ارادة الله ، وعلى الناس أن تقبل وتطيع ، والا أصابها المكروه في الدنيا وحق عليها العذاب في الآخرة •

وهكذا ، دار الفكر الديني دورة كاملة ، فاستخدمه العثمانيون والمماليك لاستعادة ملكهم الذى ضاع منهم، واستعمله نابليون ليجعل من حكمه حكم الله ومن أمره أمر الله • وهذا وذاك نتيجة التأويل الفاسد لأحكام الدين والتفسير الخاطىء لآيات القرآن • فهل يجد المسلمون مخرجا من هذا وذاك ، حتى لا يستغل الدين أحد لاستعبادهم واستذلالهم !؟


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مصر بعد خروج الفرنسيين

خمدت الحركة الثانية ضد الفرنسيين ، والتى يقول الجبرتى عنها ، ان « مدة الحرب والحصر بما فيها من الثلاثة أيام الهدنة (كانت) سبعة وثلاثين يوما ، وقع بها من الحروب والكروب والانزعاج والشتات والهياج وخراب الدور وعظائم الأمور، وقتل الرجال ونهب الأموال وتسلط الأشرار وهتك (أعراض) الأحرار (الحرائر) ··· (ويقول قبل ذلك ان العثمانيين والمماليك وجنودهم) ذاقوا وبال أمرهم وانكشف الغبار عن تعسة (تعساء) المسلمين ، وخيبة أمل الذاهبين والمتخلفين (من العثمانيين والمماليك) وما استفاد الناس من هذه العمارة (الحركة) وما جرى فى الغارة الا الخراب والسخام (الفحم أو سواد القدر) والهباب · » صفحة ١٠٩ · ويردد الجبرتى فى هذا الخصوص بيتا من الشعر :

وذنب جره سفهاء قوم　　وحل بغير جانيه العذاب

وخلال هذه الحركة حدث ما يقــول عنه الجبرتى « ٠٠ أما المدينة فلم يزل الحال بها على النسق المتقــدم من الحرب والكرب والنهب والسلب ٠٠٠ حتى ضـاق خناق الناس من استمرار الانزعاج والحريق والسهر ، وعدم الراحة لحظة من الليل والنهار ، مع ما هم فيـه من عدم القوت حتى هلكت الناس وخصوصا الفقراء والدواب ، (هذا مع) ايذاء عسكر العثمانى للرعيـة وخطفهم ما يجدونه معهم ، حتى تمنــوا (المصريون) زوالهم ورجوع الفرنسيس ٠ » صفحة ١٠٧ ٠

اذا كانت الحركة الثانية ضد الفرنسيين قد قامت وانتهت على الحـال الذى وصـفه الجبرتى ، المصرى الأزهرى العدل ، والتى دفعت المصريين الى تمنى زوال العثمانيين وجنودهم ورجوع الفرنسيين وحكمهم . فان تعقب بعض ما حدث للمصريين قبـل وبعـد مغـادرة الفرنسيين لمصر ، يكـون أمرا مهما لتقــدير التـاريخ تقديرا سليما ٠

بعد أن وصـف الجبرتى ما نتج عن الحـركة ، وما تخلف من خرائب كأثر لضرب الفرنسيين منـاطق الحركة بالقنابل والمدافع ، فانه يقول « ٠٠٠ وجميع

ما فى ضمن ذلك من الحارات والدور صارت كلها خرائب متهدمة محترقة ، تسكب عند مشاهدتها العبرات ويتذكر بها ما يتلى فى حق الظالمين من الآيات ، فتلك بيوتهم (أى بيوت المصريين) خاوية بما ظلموا ان فى ذلك لآية لقوم يعقلون ، وقال تعالى : وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين • وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا • وما كنا مهلكى القرى الا وأهلها ظالمون • وقال تعالى : واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا • • • وركب المشايخ والأعيان عصر ذلك اليوم وذهبوا الى كبير الفرنسيس (كليبر) فلما وصلوا الى داره ودخلوا عليه وجلسوا ساعة ، أبرز اليهم ورقة مكتوب فيها النصر لله الذى يريد أن المنصور يعمل بالشفقة والرحمة مع الناس ، وبناء على ذلك سارى عسكر العام يريد أن ينعم بالعفو العام والخاص على أهل مصر وعلى أهل بر مصر ، ولو كانوا يخالطون (أى يساعدون) العثمانلى فى الحروب • وانهم (فيما بعد) يشتغلون بمعايشهم وصنائعهم • • • ثم قاموا من عنده وشقوا المدينة

وطافوا بالأسواق وبين أيديهم المناداة للرعية بالاطمئنان والأمان ··· » صفحة ١١٠ ·

وفى اليوم التالى اجتمع (المذكورون) بسارى عسكر فقال لهم « ··· اننا لما حضرنا الى بلدكم هذه نظرنا (قدرنا) ان أهل العلم هم أعقل الناس ، والناس بهم يقتدون ولأمرهم يمتثلون · ثم انكم أظهرتم لنا المحبة والمودة ، وصدقنا ظاهر حالكم فاصطفيناكم وميزناكم على غيركم واخترناكم لتدبير الأمور وصلاح الجمهور فرتبنا لكم الديوان وغمرناكم بالاحسان ، وخفضنا لكم جناح الطاعة ، وجعلناكم مسموعين القول مقبولين الشفاعة ، وأوهمتمونا أن الرعية لكم ينقادون ولأمركم ونهيكم يرجعون ، فلما حضر العثملى فرحتم لقدومهم وقمتم لنصرتهم ، وثبت عند ذلك نفاقكم · فقالوا له نحن ما قمنا مع العثملى الا عن آمركم ···: وخصوصا وهو سلطاننا القديم وسلطان المسلمين ··· أجابهم (كليبر) بقوله : ولأى شىء لم تمنعوا الرعية عما فعلوه من قيامهم ومحاربتهم لنا ، فقالوا لا يمكننا ذلك خصوصا وقد تقووا علينا بغيرنا ، وسمعتم ما فعلوه معنا من ضربنا وبهدلتنا عندما أشرنا عليهم بالصلح وترك القتال · فقال لهم :

واذا كان الأمر كما ذكرتم ، ولا يخرج من يدكم تسكين الفتنة ولا غير ذلك ، فما فائدة رياستكم ، وايش (ماذا) يكون نفعكم ؟ ·· لا يأتينا منكم الا الضرر ، لأنكم اذا حضر أخصامنا قمتم معهم وكنتم واياهم علينا ، واذا ذهبوا رجعتم الينا معتذرين ·· جزاؤكم ··· قتلكم عن آخركم وحرق بلدكم وسبى حـريمكم وأولادكم · ولكن حيث اننا أعطيناكم الأمان فلا ننقض أماننـا ولا نقتلكم ، وانما نأخذ منـكم الأموال ·· (وفرض عليهم غرامات ضخمة) وقام من فوره ودخل مع أصحابه الى (ال) داخل وأغلق بينه وبينهم الباب · ووقفت الحرسية (الحرس) على الباب الآخر يمنعون من يخرج من الجالسـين · فبهت الجماعة وانتقعت (امتقعت) وجوههم ونظروا الى بعضهم البعض وتحيرت أفكارهم ··· ولم تزل الجماعة فى حيرتهم وسكرتهم ، وتمنى كل منهم (لو) أنه لم يكن شيئا مذكورا · ولم يزالوا عـلى ذلك الحال الى قريب (قرب) العصر ، حتى بال أكثرهم على ثيابه ، وبعضهم شرشر ببوله من شـباك المـكان ، وصاروا يدخلون عـلى نصـارى القبط ويقعـون فى عرضهم ·· » صفحة ١١١ ، ١١٢ ·

وانتهى الأمر بأن رحل الفرنسيون من مصر بنـاء على اتفاق عقدوه مع العثمانيين ، وفيما حدث نتيجـة

لذلك ، يحسن تقديم لقطات متتابعة مما ذكره الجبرتى نصا :

● كتب الشيخ أبو الانوار السادات الى كتخدا الدولة العثمانى ... تذكرة (كتابا) جاء فيه « ... أما بعد ، فقد نقضت عهدى وتركت مودة آل بيت جدى (أى النبى) وأطعت الظلمة السفلة وامتثلت أمر المارقين الثقلة ، فأعنتهم على البغى والجور ، وسارعت فى تنجيز (انجاز) مرامهم الفاسد على الفور ، من الزامكم الكبير والصغير والغنى والفقير اطعام عسكركم (العثمانلى) الذى أوقع بالمؤمنين الذل والمضرات ، وبلغ فى النهب والفساد غاية الغايات ، فكان جهادهم فى أماكن الموبقات والملاهى حتى نزل بالمسلمين أعظم المصائب والدواهى ، فاستحكم الدمار والخراب ، ومنعت الأقوات وانقطعت الأسباب ، فبذلك كان عسكركم (العثمانلى) مخذولا ، وبهم عم الحريق كل بيت كان بالخير مشمولا ، كيف لا وأكابركم أضمرت السوء للمرتزقة (طالبى الرزق) فى تضييق معايشهم وأخذ مرتباتهم واتلاف ما بأيديهم من أرزاقهم وتعلقاتهم (متعلقاتهم) ، وقد أخفتم أهل البلد (مصر) بعد أمنها ، وأشعلتم نار الفتنة بعد طفئها (اطفائها)

ثم فنزرتم فرار الفيران من السنور (القطط) وتركتم الضعفاء متوقعين أشنع الأمور ، فواغوثاه ... » صفحة ١٠٨ .

● وجاء الجبرتى خطاب من صديق له كان قد فر الى أسيوط ، وقت الحركة الثانية ، ورد فيه « ان أكثر الفارين رجع الى مصر (القاهرة) لضيق القرى وعدم (وجود) ما يعيشون به فيها ، انزعاج الريف بقطاع الطريق والعرب والمناسر (اللصوص) بالليل والنهار ، والقتل فيما بينهم ، وتعدى القوى على الضعيف . واستمرت الطرق مجفرة (مضطربة ؟) والأسواق معفرة والحوانيت مقفولة والعقول مخبولة ، والحانات والوكائل (الوكالات) مغلوقة والنقوش مطبوقة والغرامات نازلة والأرزاق عاطلة ... واذا أراد الانسان أن يفر الى أبعد مكان وينجو بنفسه ... لا يجد طريقا للذهاب ، وخصوصا من الملاعين الأعراب الذين هم أقبح الأجناس وأعظم بلاء محيط بالناس ... وكذلك أخذ ربك القرى وهى ظالمة .. » صفحة ١١٦ .

● « ... احتجب سارى عسكر (مينو) عن الناس ، وامتنع من مقابلة المسلمين (بعد اغتيال كليبر) وكذلك (فعل) عظماء الجنرالات وانحرفت طباعهم

عن المسلمين ··· واستوحشوا منهم ، ونزل بالرعية الذل والهوان ·· » صفحة ١٤٢ ·

● « ·· حصلت كارثة سيدى محمود ··· اذ أشار عليه (صديق) بالاختفاء ··· فوقع له مزيد المشقة فى مدة اختفائه ، وتبرأ منه غالب أصحابه ومعارفه من العربان وغيرهم وتنكروا منه ·· » صفحة ١٥٢ ، ١٥٣ ·

● « فى ذلك اليوم ··· وقع بمجلس الديوان بين الوكيل والمشايخ مفاوضة ومناقشة ، وذلك أنه لما أشيع ورود المراكب الى أبى قير شحت الغلال وارتفعت من الرقع (الأسواق) على العادة وزادت أثمانها فتفاوضوا فى شأن ذلك وانه لابد من الاعتناء من الحكام وزجر الباعة وطواف المحتسب وشيخ البلد على الرقع والسواحل ، ولما قرىء الفرمان ··· قال بعض الحاضرين (ان) العقلاء لا يسمون فى الفساد ، واذا تحركت فتنة لزموا بيوتهم ، فقال الوكيل ينبغى للعقلاء ولأمثالكم نصيحة (نصح) المفسدين ، فان البلاء يعم المفسد وغيره ، فقال بعضهم هذا ليس بجيد ، بل العقاب لا يكون الا على المذنب ، قال تعالى (كل نفس بما كسبت رهينة) وقال آخر ·· (ولا تزر وازرة وزر أخرى) فقال الوكيل المفسدون ·· أهاجوا الفتنة فعمت العقوبة ،

والمدافع والبنبات (القنابل) لا عقل لها حتى تميز بين المصلح والمفسد ، فانها لا تقرأ القرآن • وقال آخر : المخلص نيته تخلصه ، فقال الوكيل : ان المصلح من يشمل صلاحه الرعية ••• وطالت المناقشة » صفحة ١٥٦ •

وهى مناقشة كانت منذ بدأ التاريخ الاسلامى ومازالت حتى الآن قائمة ، جانب منها يرى أن المسئولية شخصية ، ويستند فى ذلك الى الآيات القرآنية (كل نفس بما كسبت رهينة) (ولا تزر وازرة وزر أخرى) ، فى حين يرى جانب آخر أن الفتنة تعم الصالح والفاسد، ويركن فى ذلك الى آيات من القرآن منها (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) (اذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحل عليها القول فدمرناها تدميرا) •

● « حضرت جوابات المراسلات التى أرسلت الى البلاد بسبب الغلال والأقوات بأن المتسببين والتجار أجابوا بالسمع والطاعة ، غير أن المانع لهم قطاع الطريق وتعدى العرب ومنعهم السبيل • وأن أبواب البلدان مغلوقة بحيث لا يمكن الخروج منها ، فاذا أمنت الطرق حضر المطلوب •• » صفحة ١٦٤ •

● « ·· في ذلك اليوم فتحوا باب الجامع الأزهر (الذى كان مغلقا منذ مقتل كليبر) ··· و ·· دخل بعض الانجليز ومروا بأسواق المدينة ··· وبات الناس يسمعون لغط العساكر العثمانية وكلامهم ووطء نعالاتهم ، فنظروا فاذا بالفرنساوية خرجوا بأجمعهم ليلا ··· ففرح الناس كعادتهم بالقادمين وظنوا فيهم الخير ، وصاروا يتلقونهم ويسلمون عليهم ويباركون لقدومهم ، والنساء يلقلقن (يزغردن) بأصواتهم بقولهم نصر الله السلطان ··· ودخل الكثير من العساكر مشاة وركبانا ، أجناسا مختلفة · » · وطافوا بالأسواق ووضعوا نشاناتهم (أقمشة الرتب) وزنكهم على القهاوى (المقاهى) والحوانيت والحمامات ؛ فامتعض أهل الأسواق من ذلك ، وكثر الخبز واللحم والسمن والشيرج بالأسواق، وتواجدت البضائع وانحلت (قلت) الأسعار وكثرت الفاكهة ··· وتعاطى بيع غالبها الأتراك، والأرنؤود (قبائل تقيم فى شمال اليونان وألبانيا) ، فكانوا يتلقون (يقابلون) من يجلبها من الفلاحين بالبحر والبر ويشترونها منهم بالأسعار الرخيصة ويبيعونها على أهل المدينة ··· بأغلى الأثمان ··· » صفحة ١٩٧ ·

● « ... ان شخصا من العسكر بالجمالية شرب من العرقسوسى شربة عرقسوس ولم يدفع له ثمنها ، فكلم العرقسوسى القلق (الرئيس) الانكشارى فأحضره وأمره بدفع ثمنها ونهره ، وأراد ضربه فاستل ذلك العسكرى الطبنجة وضرب ذلك الحاكم (الانكشارى) فقتله ، وهرب ... ودخل الى داره وامتنع فيها وصار يضرب بالرصاص على كل من قصده ، فقتل خمسة أنفار ، ومر شخصان من الأرنؤود بتلك الخطة (المنطقة) فقتلهما الانكشارية لكون الغريم أرنؤديا من جنسهما ، فلما أعياهم أمره حرقوا عليه الدار ، فخرج هاربا من النار فقبضوا عليه وقتلوه . ومات تسعة أشخاص فى شربة عرقسوس ... وذلك من مبادىء (أوائل) قبحهم » صفحة ١٩٨ ، ١٩٩ .

● « نودى بابطال كلف (تكاليف) القلقات (رؤساء العساكر) وابطال شرك (شركة) العسكر لأرباب الحرف الا من شارك برضاه وسماحة نفسه ، فلم يمتثلوا لذلك ، واستمر أكثرهم على الطلب من الناس ... وأما العسكر فلم يمتثلوا (لـ) ذلك الأمر ... ووقع بسبب ذلك شكاوى ومشاكلات(مشاكل) . » صفحة ٢٠٠ .

● « ٠٠ وليس القصد من آولئك القلقات (قصد هؤلاء الجنود) الانتصار للدين بل استغنام السلب (أخذ السلب غنيمة) وأخذ الثياب ٠٠٠ » صفحة ٢٠١ ٠

● عزل الوزير القاضى ٠٠ الذى كان ولاه قاضى العسكر بمصر (بصفته) نائبا عمن يئول اليه القضاء باسلامبول ، فلما تولى (القضاء) حصل منه تعنت فى الأحكام وطمع فاحش وضيق على نواب القضايا بالمحاكم ، ومنعهم من سماع الدعاوى ، ولم يجزهم (يجيزهم) على عوائدهم ، وآراد أن يفتح بابا فى الأملاك والعقار ويقول انها صارت كلها ملكا للسلطان، لأن مصر قد ملكها الحربيون (العسكر) وبفتحها صارت ملكا للسلطان ، فيحتاج (الأمر) أن أربابها (أصحابها أو مواطنوها) أن يشترونها من الميرى (السلطان) ثانية ٠٠ » صفحة ٢٠٢ ٠

● « أطلقوا (العثمانيون) للملتزمين التصرف ٠٠٠ ليقضوا ما لهم وما عليهم من البواقى ومال الميرى (الضرائب) والمضاف (وما يضاف اليها) ، ويدفعوا جميع ذلك الى الخزينة (الوالى) ٠٠٠ والقصد من ذلك اطمئنانهم (تطمينهم) بالجباية والرجاء بالتصرف فى المستقبل ، ووعدهم (الوالى العثمانى) بذلك ٠٠٠ بعد

دفعهم الحلوان (الرشوة) ، مع أن الفرنساوية لما استقر أمرهم بمصر ونظروا في الأموال الميرية والخراج فوجدوا ولاة الأمور يقبضون سنة معجلة ، ونظروا فى الدفاتر القديمة وأطلعوا على العوائد السالفة ... فاختاروا الأصلح فى أسباب العمار ، وقالوا ليس من الانصاف المطالبة بالخراج قبل الزراعة بسنة ... فلم يطالبوا الملتزمين بالأموال الميرية ولا الفلاحين بالخراج، فتنفست الفلاحون وراج حالهم وتراجعت (رجعت لهم) أرواحهم ، مع (من) عدم تكليفهم كثرة المغارم والكلف (التكاليف) ... » صفحة ٢٠٤ .

● « لما تولى ... أمر الحسبة (أيام الفرنساوية) منعوه من أخذ العوائد والمشاهرات (الجعل الشهرى) من السوقة (أهل الأسواق) وجعلوا له مرتبا فى كل يوم يأخذه من الأموال الديوانية (خزانة الحكومة) نظير خدمته ، وكذلك أتباعه (لكنه بعد خروج الفرنسيين) فصل من عمله وطولب بمائتى كيس ، كان (قد) أعطاها له (العثمانيون) ... لمشتروات الذخيرة (فاختلسها) .. » صفحة ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

● « تجمع النساء والفلاحون والملتزمون ... ببيت الوزير (العثمانى) بسبب الالتزام (الضرائب)

٠٠٠ فلما اجتمعوا وصرخوا سأل الوزير عن ذلك فأخبروه، فأمر بكتابة فرمان بالاطلاق والاذن للملتزمين بالتصرف (كيفما شاءوا) ٠٠٠ وبقى الأمر زجاجا (مقلقلا) أياما ، وذلك أن القوم (العثمانيين) يريدون أمورا مبطونة فى نفوسهم وأطماعا مركوزة فى طباعهم ٠٠ » صفحة ٢٠٧ .

● « وقع من طوائف العسكر (العثمانلى) عربدة بالأسواق وتخطفوا أمتعة الناس ، ومن باعة المآكل كالشواء والفطير والبطيخ والبلح فانزعجت الناس ورفعوا متاعهم من الحوانيت ، وأخلوا منها (أخلوها) وأغلقوها . فحضر اليهم بعض إكابر (قواد العسكر) وراطنهم (أى حدثهم بغير العربية) فانكفوا ، وراق الحال . وتبين أن السبب فى ذلك تأخير علائفهم ، وذلك أن من عاداتهم القبيحة أنه اذا تأخرت عنهم علائفهم فعلوا ذلك بالرعية وأثاروا الشرور فعند ذلك يطيبون خواطرهم ويوعدونهم أو يدفعون لهم ٠٠٠ وذلك من جملة عوائدهم القبيحة » صفحة ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

● من الحوادث « الارتباك فى أمر حصص الالتزام المزاد (الزيادة) فى المحلول (فيما حل سداده) ،

وعدم الراحة والاستقرار على شيء يرتاح الناس عليه .
ومثـل ذلك الرزق الاحباسـية والأوقاف (الأرزاق
المأخوذة من الأوقاف) اذ ... حضر شخص تولى النظر
والتفتيش عـلى جميع الأوقاف المصرية السـلطانية
وغيرها ، وبيده دفاتر ذلك ، فجمع المباشرين (نظار
الأوقاف) والمساجد ... وطلب كل من له أدنى علاقة
بذلك (بالأوقاف) ... ثم انكشف الامر وظهر أن
المراد من ذلك ليس الا تحصـيل الدراهم (النقـود)
فقط ، وأخذ المصالحات (أموال تدفع للصلح أو التأجيل)
والرشوات (الرشاوى) بقدر الامكان بعد التعنت فى
التحرير والتعلل باثبات المدعى في الايراد والمصرف ،
خصوصا اذا كان الشـخص ضعيفا ، وليس من أرباب
الوجاهة والمتوجهين ، أو بينـه وبين الكتبـة حـزازة
باطنيه ، ثم يحررون دفترا ، ويحررون الفائظ (الربا
المركب) ثم يطلبون منه ايراد ثلاث سنوات أو أربعة،
ولم يزل يصالح عن نفسه بما أمكنه ثم يختمون له ذلك
الدفتر ويتركونه وما يدين (به) ان شاء عمر وان شاء
آخر ، فان انتهت اليهم بعد ذلك شكوى فى ناظر وقف
سبقت له مصالحة لا تسمع شكوى الشاكي ولا يلتفت
اليها .. » صفحة ٢٠٨ ، ٢٠٩ .

● وقعت « زيادة النيـــل الزيادة المفــرطة عن المعتاد ·· (حتى) دخــل المـــاء بيوت الجيزة ومصر القديمة وغرقت الروضة ، ولم يقع فى هــذا النيــل (موسم الفيضان) حظوظ (مرح) ولا نزهة للنــاس كعادتهم ··· وذلك لاشتغال الناس بالهموم المتوالية ، وخصــوصا الخوف من أذى العســكر (العثمــانلى) وانحراف طباعهم وأوضاعهم ·· » صفحة ٢٠٩ ·

● « ومنها (من الأحداث) حضور الجمع الكثير من أهالى الصعيد ، هروبــا من الألفى (الحاكم) وما أوقعه بهم من الجور والمظالم والتقــارير (الفروض) والضرائب والغرائم ··· حضر ··· يتشــكون مما أنزله على بلادهم وطلب متروكات الأموات (التركات) ··· وطلب استئصال ما بأيدى (الورثة) (مصــادرة التركات) ··· (ومن الحوادث) كثرة تعــدى العسكر بالأذية للعامة وأرباب الحــرف ، فيأتى شــخص منهــم ويجلس عــلى بعض الحوانيت ثم يقوم فيدعى ضياع كيسه أو سقوط شىء منه ، وان أمكنــه اختــلاس شىء فعل ، أو يبدلون الدنانير الزيوف (المزيفة) الناقصة النقص الفاحش بالدراهم الفضة قهرا ، أو يلاقشــون (يجامعون) النساء فى مجامع الأسواق من غير احتشام

ولا حياء ٠٠٠ وانتشروا فى القرى والبلدان ففعلوا كل قبيح ، فتذهب الجماعة منهم الى القرية وبيدهم ورقة مكتوبة باللغة التركية ويوهمونهم أنهم حضروا اليهم بأوامر ، اما برفع الظلم عنهم ، أو ما يبتدعونه من الكلام الزور ،ويطلبون حق طريقهم مبلغا عظيما ، ويقبضون على مشايخ القرية ويلزمونهم الكلف (التكاليف) الفاحشة ، ويخطفون الأغنام ، ويهجمون على النساء ، وغير ذلك مما لا يحيط به العلم ٠٠٠ واذا انفردوا بشخص أو بشخصين خاج المدينة أخذوا دراهمهم أو شلحوهم (سلبوهم) من ثيابهم أو قتلوهم بعد ذلك ٠ وتسلطوا على الناس بالسب والشتم ٠٠٠ وتمنى أكثر الناس ، وخصوصا الفلاحين ، أحكام الفرنساوية ٠٠٠ » صفحة ٢٠٩ ، ٢١٠ ٠

● « ٠٠ تفكك الجسر الكبير المنصوب من الروضة الى الجيزة ، وذلك من شدة الماء وقوته ، فتحللت رباطاته وانتزعت مراسيه وانتشرت أخشابه وتفرقت سفنه ٠٠ » صفحة ٢١٠ ٠

● « حضر القاضى الجديد من الروم (قاضى عسكر الرومى أى قاضى القضاة) ووصل الى بولاق ٠٠

فأقام ثلاثة أيام وصحبته عياله وحريمه ·· » صفحة ٢١١ ·

● « ·· أحاطت العسكر (العثمانلى) بالأمراء (المماليك) ··· وباتوا بليلة كانت أسوأ عليهم من ليلة كسرتهم وهزيمتهم من الفرنسيس ، وخاب أملهم وضاع تعبهم وطمعهم ، وكان فى ظنهم أن العثملى يرجع الى بلاده ويترك لهم مصر ، ويعودون (هم) الى حالتهم الأولى يتصرفون فى الأقاليم كيفما شاءوا ··· (وقال المماليك عندما طلبوا منهم ترك مصر « كيف يصح هذا الأمر ، وقد دخلنا الى البلد (مصر) وملكناها ، فكيف نخرج منها طائعين » صفحة ١٠٢ ·

● « نودى بأن خراج الفدان مائة وعشرون نصفا ، وكذلك نودى برفع عوائد (مصاريف) القاضى والأفندى ··· وزاد على ذلك اهمال الأوراق ببيت الباشا لأجل العلامة (التوقيع) شهرين وأربعة ، حتى يسأل صاحبها وتحفى أقدامه من كثرة الذهاب والمجىء ، ومقاسات (أنواع) الذل من الخدم والأتباع ، ودفع البقشيش والرشوة على التعجيل ، أو يتركها وربما ضاعت بعد طول المدة ·· » صفحة ٢٢٢ ·

● « وقفت الأرنؤود (وهم من قبائل كانت تعيش في شمال اليونان وفي البانيا) لخطف ٠٠ الفلاحين ٠٠ ووقع منهم القتل في كثير من الناس ، حتى في بعضهم البعض ٠ وغالبها لم يصم رمضان ، ولم يعرف لهم دين يتدينون به ولا مذهب ولا طريقة يمشون عليها (بل) اباحية ، أسهل ما عليهم ٠ قتل النفس ٠٠ ٠ وأما ما فعله كشـــاف الأقاليم فلا تدركه الأفهـــام ولا تحيط به الأقلام ٠٠ » صفحة ٢٨٧ ٠

● « وارسلوا العسكر (العثمانلى) الى بيوتهـم (بيـوت المصريين) فجلسوا بها يأكلـون ويسـكرون ويطلبون من النســاء المصروف ، خـلاف الأكل الذى يطلبونه ويشتهونه ، وهو (المصروف) ثمن الشراب والدخان والفاكهة ، بل ويأتون بالقحاب معهم ٠٠ » صفحة ٣٢٩ ٠

هـذى نقطات من شريط طـويل ، وواقعات من تاريخ أسود ، عاش فيه المصريون وهم يئنون من المظالم ويضجون من المغارم ، وما من مجيب ! فلا حكومة ولا حكام ، ولا ادارة ولا اداريون ، لا شريعة ولا قانون ، ولا قضاء ولا قضاة ، بل عصابات من النهابين والخطافين والسفاحين وقطاع الطرق ، ومن ماثلهم ومن شاكلهم ٠

ونتيجة للمفاهيم الدينية الخاطئة فقد ظن الناس أنه قضاء الله المكتوب عليهم وانه قدرهم المقدور من قديم الأزل ، فقعدوا عن أى مقاومة وسكتوا عن أى معارضة. وظلوا فى سلبية شديدة يرددون بأصوات خافضة كسيرة : يارب متجلى ، اهلك العثمانلى • وقد كانت أبواب السماوات موصدة ، فلم يهلك العثمانلى الا بعد أن هلك المصرانلى •

الثقافة السمعية والحملة الفرنسية

في أنشودة الجندول للشاعر المصرى على محمود طه ، والتى لحنها وغناها محمد عبد الوهاب ، بيت من الشعر له مدلول غاية فى الأهمية ، خاصة حينما يصدر عن شاعر مصرى ، ويغنيه عبد الوهاب ، فيصير نغمة على كل لسان ، يردده الكبير والصغير ، والمتعلم والجاهل ، والواعى والغافل .

يقول هذا البيت :

أنا من ضيع فى الأوهام عمره
نسي التاريخ أو أنسى ذكره !

فالشاعر ، والمغنى ، الذى يعبر عن روح الأمة ، ويكشف عن طبيعتها ، يفصح عن أنه نسي التاريخ ، أو أنسى ذكره ، فضاع عمره فى الأوهام ، بعيدا عن الحقائق ، وبمنأى من الواقع .

ومن يكن هذا شأنه ، فردا أو جمعا ، شخصا أو أمة ، فانه لابد وأن يجنح بأوهامه الى الخيال ، ويجمح بأحلامه الى الخبال ، فلا يتوافق مع الحقيقة أبدا ، ولا يتصادق مع نفسه قط • والسبب فى هذا الجموح وذلك الجنوح ، فى هذا الخبال ، وذاك الخيال ، هو عدم ذكر التاريخ ، وعدم الالتفات اليه وعدم التأسى به •

ما الذى أدى ويؤدى الى نسيان التاريخ ، وأفضى ويفضى الى الضياع فى الأوهام والشتات فى الأحلام !؟

لذلك أسباب كثيرة ، غير أن أهمها وأشدها ، فيما يتعلق بالمصريين ، وبالعرب ، وبالمسلمين ، ركونهم الى الثقافة الشفهية • فلقد قامت الثقافة العربية على الشفهية ، نتيجة لما كان عليه العرب من بداوة وبدائية ، ثم امتدت هذه الثقافة وانتشرت الى المسلمين الأوائل ، الذين كانوا عربا • ثم استمرت بعد ذلك الى الأجيال التابعة والتالية ، بحسبانها سنة الأولين ونهج التابعين •

لقد كان الأحرى بالعرب ، والمسلمين ، أن يعووا الفوارق الدقيقة والمهمة ، بين الثقافة الشفهية ، التى تنتقل من شفة الى أذن ومن شفة الى شفة ، بلا تحقيق

ولا توثيق ولا تدقيق ، وبين الثقافة العلمية التي تسرى من عقل الى عقل ، ومن فكر الى فكر ، فى منهجية وتتابعية واطردية ومنطقية وتكاملية ، أساسها التحقيق والتوثيق والتدقيق ، وقوامها الالتزام فى كل لفظ ، والانضباط في كل حرف ، والتحديد فى أى معنى ، والوضوح فى أى تعبير . حتى عندما بدأ عصر التدوين ، فى القرن الثالث الهجرى ، فان الكتاب كتبوا ، والمدونين دونوا ، بالأسلوب الشفهى والنهج السمعى ، والوضع النقلى ، فكتبوا كما لو كانوا يتكلمون ، ودونوا كما لو كانوا يتحدثون ، وبذلك لم ينتقلوا بالكتابة من الثقافة الشفهية الى الثقافة العلمية ، الا فى أعمال نادرة للغاية ، أغلبها الكتابات الفلسفية التى تأثرت فى نهجها وفكرها بالفلسفة الاغريقية ، وخاصة مؤلفات أرسطو . والذى له دلالة خاصة فى هذا الصدد ، أن لفظ التدوين ، الذى أطلق على العصر الذى بدأ فيه المسلمون الكتابة ، يعنى (هذا اللفظ) الجمع والترتيب ، وهو تصريف من لفظ الديوان الذى هو تصحيف للفظ الايوان الفارسى ، بمعنى المكان الذى يوجد فيه الكتبة وموظفو الحكومة (المعجم العربى الأساسى ، مادة : دون) . فالتدوين من

ثم ، كان يعنى الجمع والترتيب ، ولا يعنى الانشاء والتفكير ٠

عادة ما تكون الثقافة الشفهية ثقافة كل أمة فى بداية نشأتها وبداوة سيرتها ، على أن تتجاوزها بعد ذلك الى الثقافة العلمية ، لتستبدل العقل باللسان والفكر بالآذان ، لكن الخطر كل الخطر أن تتجمد الأمة فى ماض بدائى وتتحفر فى تراث بدوى ، فيصير هذا وذاك حائلا دون الثقافة العلمية وحاجبا عن الرشد العقلى ، بما يلقى فى مهاوى ومساوى الثقافة الشفهية ٠

فللثقافة الشفهية سلبيات كثيرة ، أهمها أنها ثقافة لفظية انشائية ، فخارية هجائية ، متخطفة متلفقة ، شكلية ظاهرية ٠

فهى لفظية انشائية من حيث انها تقف عند اللفظ وحده ، فتنمقه وتزوقه ، وتبقصه وترصه ، وتعنى وتحتفى ، لكنها تفعل ذلك فى حدود جملة واحدة أو فى نطاق عبارة مفردة ، دون أن تتنبه للتركيب البنائى أو المعانى المتصلة أو المفاهيم المتكاملة ٠ بهذا تنتهى الثقافة اللفظية الى جمل متراصة بجوار بعضها ، لا تتراكب ولا تتداخل ولا تتفاعل ، انما هى جملة بعد جملة

وراء جملة ، بلا أى توقف أو نتيجة أو نهاية ، وهو ما يعد من قبيل الانشاء ، أى توليف الألفاظ وتنسيقها فى استرسال متواصل ، بما يعبر عنه فى اللغة الانجليزية بلفظ Rhetoric أى اللغة المنمقة الطنانة التى تتسم بالمغالاة وعدم الصدق ، على حساب الفكر ·

وهى فخارية هجائية من حيث انها تعتمد على التشدق الكلامى والتحذلق الخطابى ، الذى ينحدر بها الى التفخيم والتضخيم ، بالتفاخر والتظاهر ، من جانب الذات ، وبالهجائية والخصامية والهجومية والعدوانية فى خطاب الغير · وتظهر هذه الخصيصة واضحة فى الشعر العربى ، منذ عهد ما قبل الاسلام حتى اليوم ، اذ أن أهم وأخطر ما فيه هو ما يتصل بالفخر بالذات أو القبيلة أو الأمة ، وما يتعلق بالهجو للغير ، فردا كان أو قبيلة أو أمة ·

وهى متخطفة متلفقة من حيث انها لا تحقق ولا توثق ولا تدقق ، وانما تعتمد على الاشاعات وتركن على الحكايات ، فتتخطف نصا من هنا ونصا من هناك ، قولا من هذا وقولا من ذاك ، كلمة من موضع وكلمة من آخر ، خاطرة من جانب وخاطرة من عكسه ، كلمة من

قاتل وكلمة من خصمه ، وهكذا • ولأنها لا تستطيع البناء ولا تقدر على التركيب ، خاصة بين شوارد وعوارض ، فانها تلفق الأحاديث وترتق الروايات وتلصق الحكايات •

وهى شكلية مظهرية من حيث انها تعنى بالشكل دون المضمون ، وتهتم بالمبنى لا بالمعنى ، وتقف عند المظهر بعيدا عن الجوهر • ذلك بأن الطبيعة اللفظية لها ، والحقيقة الحرفية عندها لا تستطيع أن تتجاوز الخارجى الى الداخلى ، ولا يمكنها أن تتعدى الظاهرى الى الباطنى •

هذه الثقافة الشفهية التى ضربت بسوءاتها على المصريين ، وعلى الغرب ، وعلى المسلمين ، هى التى أنستهم التاريخ ، مادام أنه من مقتضاها ألا يعرفوا ولا يفهموا التاريخ وأحداثه ، فى منهجية وتتابعية واطرادية ، بحيث تظهر الأحداث ومحدثيها ، والأسباب ومسبباتها ، واضحة جلية ، متوالية متتابعة تبين الحقائق ، واحدة بعد أخرى ، وشخصا تلو آخر ، لكنهم يعرفون منه تخطفات وتلفقات ، تظهر فى نوادر أو نكات أو أمثلة أو مقتطفات ، لا توضع فى

نطاقها التــاريخى ، ولا تعرض في مجالهــا الزمنى ، ولا تبدو فى سياقها الطبيعى .

بهذا نسى المصرى ، والعربى ، والمسلم ، تاريخه، أو أنسى هــذا التاريخ ، فعاش فى أوهام صنعتها له خيالات عليلة ، وهيأتها له خبالات كليلة ، مما انتهى به الى الضياع فى الحياة والشتات فى الذات .

ومن الخيــالات العليلة والخبــالات الكليلة أن المصرى لا يعرف حقائق التاريخ ودقائق الواقع ، بل يتصور هذا وذاك بالأوهام والاشــاعات فى صورة لم تحدث أبدا ولم تقع قط ، وبهذا فانه لا يســتطيع أن يحكم حكما صحيحا على ماضيه ، ولا يستطيع أن يصل الى قرار سليم فى حاضره .

فمما يشاع ويذاع ، كمــا لو أنه حقيقة ثابتــة مؤكدة ، أن مصر كانت تعيش ، فى عهــد الاحتــلال العثمانى ، عيشة سعيدة آمنــة ، تحقق فيهــا العــدل والسلام والرخاء ، نتيجة لتطبيق الشريعة الاســلامية واعمال الدين القويم ، حتى جاءها الاحتــلال الغربى (الفرنسى ثم البريطانى) فبدل العدل ظلما ، والسلام حربا ، والرخاء جدبا . وتشــاع الاشــاعات وتذاع

الاذاعات ، دون أن يكلف أحد خاطره فيقدم دليلا على ذاك أو سندا على ما يدعيه ، ولا يرجع أحد بنفسه الى مرجع مهم ، مثل كتاب الشيخ الجبرتى ، المصرى الأزهرى العدل ، ليستوثق من الحقائق ويستجلى كل الدقائق •

(أ) فمما ذكره الجبرتى ، وورد فى الفصول السابقة ، ما يقطع بيقين بأنه لم يكن يوجد فى مصر ، قبل الحملة الفرنسية ، شعب بالمعنى المفهوم والمدلول الدارج ، ولم تكن توجد أمة متوحدة متجانسة ، بل كانت فى مصر أخلاط من الناس متنافرة ، وأمشاج من الخلق متحاربة ، لا يجمعها جامع ولا يضمها هدف • فكانت كل جماعة ضد الأخرى ، وكانت كل طائفة فى حرب مع غيرها ، وكان كل فرد غارق فى الجهل ، والأنانية ، لا يعنى بوالد أو بولد أو ببلد ، اذا ما حزب الأمر أو حلت كارثة •

فقد كانت فى مصر آنذاك طبقة من المماليك (العبيد) الذين يجلبون من بلاد القوقاز والتركستان (التتار) وشركسيا وغيرها ، وهم بطبيعة الحال غرباء عن أهل مصر ، لم يعرفوا الاسلام من آبائهم أو من مجتمعاتهم ، وانما اعتنقوه على حرف عندما استقروا

بمصر • ولهؤلاء المماليك (العبيد) نفسية العبيد وأخلاق الدون ، وهو ما وصفه الجبرتي بنظرة نافذة ودقة بالغة ، فقال عن كبيرهم (مراد بك) ما يصدق على غيره ، من غلبة الهاجس والوسواس ، والخوف والجبن والتهور والطيش والتورط ,والغرور والكبر والخيلاء والصلف والظلم والجور ، غشوم عسوف ذميم ظلوم !!! (بنص ألفاظ الجبرتي على كثرتها وقسوتها) • وقد كان هؤلاء المماليك (العبيد) فى صراع دائم مستمر مع بعضهم البعض ، على الامارة والسيادة واغتيال المصريين ونهب أموالهم • ومع ذلك لم يكونوا على كفاية فى الحرب وشجاعة فى القتال ، فانهزموا فى ثلاثة أرباع الساعة ، واذا بهم يفروا من المعركة ويتخلوا عن المصريين •

والى جانب هؤلاء المماليك جماعات من الشوام والمغاربة والأروام • وعدد قليل من مشايخ الأزهر لا يتكرر منهم الا أسماء الشرقاوى والمحروقي والبكرى، ولم تكن لهم رياسة على الناس ولا مكانة فى المجتمع، بل كانت الغلبة دائما للغوغاء والأزاعر والحرافيش (الذين ليست لهم أسر ولا انتماء) ومن يصفهم الجبرتي بالحشرات (أى سفلة السفلة) • ولم يظهر

خلال الأحداث ، فى كل تاريخ الجبرتى ، وجود طبقة من المستنيرين العلماء الذين يعلمون المجتمع ويثقفون الناس ويشيرون بالرأى ويقودون الأمة . الى جوار هؤلاء ، وفى خارج المدن غالبا ، يوجد الأعراب الذين يعيشون على السلب والنهب وقطع الطرق وهتك الأعراض . وقد حرص الجبرتى على أن يورد فى شأنهم نص ما كتبه اليه صديق فر الى أسيوط فقال « الملاعين الأعراب الذين هم أقبح الأجناس وأعظم بلاء محيط بالناس» ، وهو وصف يتضح أن الجبرتى حرص على ابرازه دائما كلما ورد ذكر لهؤلاء الأعراب .

ونتيجة لتشتت الشعب وتبدد الأمة (ان كان ثمة شعب أو أمة) فان الناس هربوا فرادى ، منهزمين منسحقين ، بمجرد سماعهم بمقدم الحملة الفرنسية « لا يسأل أحد عن أحد ، بل كل واحد مشغول بنفسه عن أبيه وابنه » كما يقول الجبرتى نصا . وما ان تركوا مصر (القاهرة) حتى كانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار ، فقد تلقفهم الأعراب الفلاحون فسلبوهم وانتهبوهم وهتكوا أعراض النساء ، حتى اضطروهم الى العودة من حيث هربوا ، وهم عراة حتى من ملابس تستر العورة .

(ب) ولم يكن في مصر عدل ولا أمن ولا سلام . ففى كل ما سلف بيانه فى الفصول السابقة يظهر بجلاء أن الطرق بين البلاد كانت دائما مقطوعة من الأعراب (قطاع الطرق) ، وأنه لم يكن ثم ضمان للأمن أو السلام أو العدل لأى فرد من المصريين . فالجنود العثمانيون والمماليك وأتباعهم يقتلون من يشاءون دون سبب وبغير جريرة ، ويخطفون ما يحمله الناس ، ويهتكون الأعراض كيف شاءوا ، ويحتكرون أقوات الناس وطعامهم ، ويشاركون الأسر فى المساكن ويفرضون عليهم الاتاوات ... وهكذا . فمن الذى يأمن أو يسلم فى هذا المناخ الفظيع الشنيع !؟

(جـ) وكانت وجهة نظر السلطنة العثمانية أن عسكرها أخذوا مصر بحد السيف ، ويتعين على المصريين أن يعاودوا شراء بلدهم من السلطان ان أرادوا ، ووافق هو على ذلك ، وهذا المفهوم هو ما صرح به القاضى الذى ولاه قاضى عسكر (الرومى) ، على ما سلف بيانه .

وكان هذا هو اعتقاد المماليك الذى صرحوا به عندما طلب اليهم العثمانيون ترك مصر بعد رحيل

الجيش الفرنسي اذ قالوا : لقد دخلنا الى البلد (مصر) وملكناها فكيف نخرج منها طائعين ؟

ومؤدى ذلك أن السلطنة العثمانية كانت ترى فى مصر غنيمة مملوكة لها بحد السيف ، وكذلك فان المماليك كانوا يرون أنها ضيعة مملوكة لهم ٠

فمصر ، على الحالين ، لم تكن بلدا مستقلا أو محتلا ، بل كانت غنيمة وضيعة ، وأبناؤها ملك للغانم وعبد للحاكم ٠

(د) ولم تكن الشريعة تطبق فى مصر آنذاك ، ولا كان التدين الصحيح معروفا ٠ ذلك أن لفظ الشريعة لم يرد فى كتاب الجبرتى الا على لسان نابليون وفى منشورات الفرنسيين ، ولا يوجد فى كل الكتاب، فى فترة ما قبل الحملة الفرنسية وأثناءها ، ما يدل على تطبيق أحكام الشريعة ، أو وجود فاعلية لها فى تعاملات الناس ، أو قيام علماء لها أو فقهاء فيها ، أو صدور كتب عنها ، ولم نقرأ على لسان أحد المشايخ رأيا يرجعه الى الشريعة أو فتوى يعتمد فيها على رأى فقهى ٠ ولم توجد محاكم شرعية ، ولا مدنية ، وانما كان يرأس القضاء قاضى عسكر الرومى ، أى قاض عسكرى غير عربى ولا مسلم ، وهو الذى كان يعين

القضاة بعد أن يحصل منهم على الرشــاوى ، فيظلموا هم كما يشاءون ، ويصدروا الأحكام لمن يدفع أكثر ، اذ لم يكونوا مستقلين ولا كانوا يتقاضــون مرتبــات ثابتة من السلطة ، لأنه لم تكن توجد سلطة ولا كان ثمة تنظيم للقضاء أو لغيره ٠

أما عن التدين فقد كان شائها الى حد ينحرف به عن صحيح الدين وصريح الشرع ٠

فالناس تمتهن المساجد فتلحقها بالأسواق القذرة، حيث الأكل والشرب والغزل ، والطبل والزمر والنقر ، والقاذورات « والعفوشــات » ، وهم فى المساجد وفى غيرها ، يحرفون ذكــر الجلالة (بنص تعبير الجبرتى) ، ويتكلمون بكلام محرف (عن أصــل صــحيح) يظنون أنه ذكر يثابون عليه ، ويتبركون ويتوسلون بشخص أبله ، يقدمون له الهدايا والنذور ، ويعبون من الهواء المحيط بقبره ليمتلؤوا من بركاته ٠ حتى قال فيهــم الشاعر الذى أورد الجبرتى أبياتا من شعره ، يعنيها هو بغير شك ، ويقصد معناها دون مواربة ، فيصفهم بأنه « هكذا المشركون تفعل مع أصــنامهم » أى انهم مشركون وعبدة أوثان ٠

ولا يرد على ذلك بأن ما سلف من أوصاف ووقائع يتصل بالعوام ويتعلق بالجهال ، وأنه كذلك استثناء

لا قياس عليه ولا تعميم له ؛ ذلك لأن الجبرتى لم يذكر هذا التبرير ولم يشر الى أن أغلب الناس على غير ذلك، لكنه كان فيما يؤرخ يروى واقعات هى بذاتها نماذج لما يحدث فى كل آن وفى كل مكان ، خاصة حين تقع فى المسجد الأم ، وهو المسجد الحسينى • يضاف الى ذلك أن المجتمع ذى التدين السليم والشرع الصحيح لا يمكن أن يفرز واقعات كتلك ، ولا أن يسمح بظهورها أبدا •

والذى يؤكد أن تدين الناس كان شائها ، فضلا ، عما سلف ، ما كان قد بدا منهم من أفعال وسلوكيات •

(هـ) فلقد كانت الجموع (العامة والغوغاء وأخلاط الناس ، بلغة الجبرتى) تضج عندما سمعت أصوات القتال بين الفرنسيين والمماليك فى منطقة امبابة ، يرفعون أصواتهم بالصياح ، فيما يعبر عنه الجبرتى بتعبير صادق صحيح اذ يقول « وكأنهم يقاتلون ويحاربون بصياحهم » • ونفس الأسلوب هو الذى كان يتبعه المصريون عامة ازاء مظالم العثمانيين ، اذ أنهم لم يقاوموا ولم يعارضوا، وانما ظلوا طوال السنين يدعون الله ويقولون « يارب يا متجلى ، اهلك العثمانلى » •

هذا الأسلوب الذى يكتفى بالقول بدلا من العمل هو أسوأ نتاج الثقافة الشفهية ، التى تعتقد بأن القول مكافىء للعمل ، وأن الكلام بديل عن الفعل . فما دامت قد قالت فقد فعلت ، وما دامت قد سمعت (اشاعة) فما سمعته وقع فعلا وحدث بالضبط !!

وفى التدين الصحيح ، فان القول لابد أن يقترن بالعمل ، والكلمة ينبغى أن تتحقق فى فعل . وفى القرآن (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم) سورة التوبة ٩ : ١٤ . لكن الفهم الخاطىء للتدين يبطل العمل ويعدم الفعل . على تقدير أن هذا أو ذاك (الفعل أو العمل) لا يغير مقدورا ولا يبدل مسطورا . فكل شىء مكتوب عند الله فى لوح القدر منذ الأزل ، ولا سبيل الى تغييره أو تبديله ، فقد جفت الأقلام وطويت الصحف . واذا كان هذا صحيحا فلا يكون من الدعاء جدوى ، اذ أنه صراخ فى الهواء ، لا يؤثر ولا يغير ، مع أنه فى القرآن (وذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداعى أذا دعانى) سورة البقرة ٢ : ١٨٦ . أما ان كان للدعاء أثر ، فان هذا الأثر لا يكون لا مع وجود عمل من الانسان . فالله سبحانه وتعالى ان أراد رسالة منه بعث نبيا بشرا ليبلغ رسالته ، وان أراد علما أو ابداعا خلق

انسانا ليصل الى العلم أو يحقق الابداع ، بعد معاناة منه ، ومشقة واجتهاد . والدليل على ذلك ، تلك الآية التى سلف بيانها (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم) . فالدعاء وحده ، بغير مجاهدة ومكابدة ، ليس من الفكر الدينى الصحيح .

(و) أما عن السلوكيات فان الجبرتى على الدوام يورد وقائع وسلوكا لا يصدر الا عن همج بلا دين ولا خلق ، ورعاع بغير شرع ولا أدب . ينتهزون أى فرصة للقتل والسلب والنهب ، ويتبعون عورات الناس ويقطعون راس صبية لأخذ ما على رأسها من حلى أو مصاغ ، ولا يحترمون كبيرا أو رئيسا ، فهم يخافون ولا يستحون ، هذا فضلا عن أنهم لا يحفظون عهدا ولا يقولون صدقا ، ولا يقيمون عدلا .

فبعد أن خمدت الحركة الثانية ضد الفرنسيين ، وجمع قائدهم العلماء والمشايخ وعاتبهم لأنهم أظهروا للفرنسيين المودة والمحبة وهم يضمرون غير ذلك ، لم يقل أحد فى وجهه كلمة واحدة تعنى رفضه للاستعمار الفرنسى أو تأييده للحركة ضده ، فيجاهد ولو بالقول ، لكنهم كلهم أبدوا الاعتذار وكرروا الأعذار ، فاستحقوا احتقار القائد وازدراءهم . ولما فرض عليهم غرامة

مالية وتركهم يمنعهم الحراس من الخروج ، بال أكثرهم على ثيابه من الخوف والفزع ، وتمنى كل واحد منهم لو لم يكن شيئا مذكورا ، واستنجدوا بالأقباط (ووقعوا في عرضهم) ليتوسطو لهم لدى الفرنسيين . فهل هذا من الدين أو الشرع فى شىء ؟ وهل خلد أحد منهم تخاذله وجبنه ؟ ألم يعى أحدهم المعانى الحقيقية للكفاح ضد أى مستعمر وأى غاز !؟

وقد سلف بيان كتاب الشيخ السادات ، وهو من كبار المشايخ ، الى كتخدا الدولة العثمانى وفيه يقول : « ... لقد نقضت عهدى (مع الفرنسيين) ... وأطعت الظلمة السفلة وامتثلت أمر المارقين الثقلة (يقصد العثمانيين) فأعنتهم على البغى والجور ، وسارعت فى تنجيز (انجاز) مرامهم الفاسد على الفور ، من الزامكم الكبير والصغير والغنى والفقير اطعام عسكركم (العثمانلى) الذى أوقع بالمؤمنين الذل والمضرات ، وبلغ فى النهب والفساد غاية الغايات ، فكان جهادهم فى أماكن الموبقات والملاهى حتى نزل بالمسلمين أعظم المصائب والدواهى ... الى آخره » . فهل من الدين فى شىء أن ينقض المؤمن عهدا قطعه على نفسه ، وأن يطيع الظالمين على ظلمهم ، وأن يعينهم على

اذلال النـاس والاضرار بهـم ، وفى اعمـال النهب والفساد ، ويسكت عن جهـاده فى الملاهى وأماكن الموبقات ؟! وهل من الشرع فى شىء ألا يحمى الشيخ المسلمين من المصـائب والدواهى وهـو يعـرف ذلك ويصيبت ، فلا يصـيح بالحق ولا يجهـر بالصـواب ولا يدعو الى الصلاح !! ؟

(ز) وقد قام العامة والغـوغاء بحـركتين ضـد الفرنسيين يبالغ بعض الكتـاب فى شـأنهما فيزعمون أنهم ثورتان ، مع ما سـلف من بيـان الجبرتى عنهما ووصفه لمن قام بهما ، وسفور رأيه فى عـدم الرضـا عنهما ، مما دعاه الى أن يردد فى شأن الحركة الثانيـة قول الشاعر ::

وذنب جره سفهاء قوم

وحل بغير جانيه العذاب

هذا فضلا عن استشهاده ، هو وصديقه الذى كتب اليه من أسيوط ، بآيات من القرآن الكريم تفيد خراب بيوت الظالمين ، بما يكشف عن رأيهما بأن الخراب الذى حل بالناس وبيوتهم ، اثر الحركة الثانية ، كان نتيجة ظلمهم وعقابا لهم من الله ».

ومع ذلك ، وعلى فرض أن ما حدث ثورتان ، وليست هوجتان ، فان الثورة على المستعمر والغازى ضرورة لابد منها ، وواجبا على الشعب كله وعلى كل فرد فيه • لكن التساؤل لابد أن يثور عن سبب هيجان العامة على الفرنسيين الذين عاملوهم بالحسنى ، بشهادة الجبرتى نفسه ، وعدم ثورتهم على العثمانيين والمماليك ، وأتباعهم وأشياعهم ، مع أنهم فعلوا بالمصريين مالا يمكن أن يتصوره أحد أو يعتقد أنه حقيقة وواقعا الا بعد أن يقرأه في كتاب الجبرتى • فما من رذيلة الا أتوها ، وما من مظالم الا أوقعوها ، وما من مفاسد الا اقترفوها ، مما سلف بيانه ، وأنف ايضاحه •

لا شك أن استكانة المصريين العثمانيين والمماليك كانت تعود الى الاعتقاد الدينى الخاطىء بأنهم مسلمون ، وأن سلطان العثمانيين سلطان المسلمين • فلا تجوز الثورة عليه ولا الاعتراض على حكمه (وهو الاعتقاد الذى ظهر جليا واضحا حين استصدر السلطان العثمانى فتوى من شيوخ الدين بأن محمد على وابنه ابراهيم خارجان على الدين مارقان من الشريعة ، يجوز قتلهما ، ثم عاد وسحب الفتوى ، وحين استصدر ذات

السلطان فتوى دينية ضد أحمد عرابى باعتباره خارجا عن الاسلام مادام قد خرج على السلطان وطالب بحق شرعى له ولغيره من المصريين) . يؤكد هذا المعنى أن المهيجين ضد الفرنسيين كانوا يصفونهم بالكفر ولم يصفوهم بالظلم . ومؤدى هذا الاعتقاد الدينى الخاطىء أنه يسوغ لمن يدعي الاسلام ، ولو رءاءا ورياءا ، أن يرتكب كل الموبقات ويقترف كل المظالم ويجترح كل المفاسد . وهذا الاعتقاد الخاطىء هو الذى أدى الى القالة التى تردد بأنه « لا تضر مع الايمان معصية ، ولا تنفع مع الكفر طاعة » ، أى أن الأساس هو مجرد الايمان ، ولو ظاهريا ، بحيث يجوز لمن يدعيه بعد ذلك أن يفعل المعاصى والآثام والذنوب فلا يؤاخذ بها أو يساءل عنها ، فى حين أن غير المؤمن يعاقب ويجازى ولو فعل كل خير وأتى كل عدل وبذل كل خير . والحقيقة التى يؤكد عليها القرآن هى ضرورة اقتران الايمان بالعمل الصالح « الذين آمنوا وعملوا الصالحات » ، « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون » سورة فصلت ٤١ : ٣٠ .

ان الفهم الدينى الخاطىء يجيز الاستعمار والاستعباد والاستذلال لمن يشارك المسلم فى دينه ، ولو

ادعاء ، دون أن يقرن هذا الايمان بصحيح العمل ، من عدل وفضل وخير وبر وبذل وعطاء واحسان . ومن جانب آخر ، فان القرآن يدعو المؤمن الى عدم قبول الظلم ، سواء من مسلم أم من غير مسلم ، ويتوعد بالعقاب من يقبل الظلم ويسكت عن الاضطهاد ، على تقدير أنه هو الذى ظلم نفسه وهو الذى اضطهد ذاته (ان الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا) سورة النساء ٤ : ٩٧ . أى ان من يقبل الظلم على نفسه ويرتضى الافتئات على حقه ، يكون مهينا فى الدنيا وينال عقابا فى الآخرة .

(ح) وصف الجبرتى سليمان الحلبى قاتل كليبر قائد الجيش الفرنسى ، بعد نابليون ، بأنه (أى سليمان) آفاق أحمق . والأفاق لغة ، هو من لا ينتسب الى وطن ومن لا يثبت على رأى واحد . والأحمق لغة ، هو الأهوج قليل العقل . وألمح المدعى الفرنسى فى المحاكمة الى أن سليمان الحلبى من أرباب السوابق (ولعل هذا هو ما دعا الأغا العثمانى الى استدعائه وتكليفه مهمة القتل) . وقال سليمان فى اعترافاته أنه قبل القتل

لقاء مال يدفع له ووجاهة اجتماعيـة تضفى عليـه .
وحين ادعى أنه قتل كليبر مجاهدة ومغازاة ، فانه لم يذكر في ذلك سـببا دينيـا ولا سـندا شرعيا . وقال مصـطفى أفنـدى الذى قضى ببراءته انه لا يعلم من القرآن الا « مشاديدة » أى أحـكامه الشـديدة ، وأن القرآن يذكر المغازاة (الجهاد) ، وأن من قتل كافرا يكسب أجرا ، غير أنه لا علاقة له بما يقوله القرآن في ذلك ، لأن شرف الفرنسيين من شرف الاسلام (بنص قوله) .

ويعني ذلك أنه لا سليمان ولا غيره ممن أدين معه أو برىء من الاتهـام كان يفهم معنى الجهـاد بأسانيد شرعية ، وانمـا تجرى فهومهـم فى ذلك على مجـرد السماع، وتقوم عقولهم في ترديده على ثقافة الاشاعات، التى تدعى خطأأن من قتل كافرا يكسب أجرا . وهـذه المقالة التى ظهرت فى محاكمة سليمان الحلبى ، والتى يرددها الجهال والبغاة ، هى التى أساءت ومازالت تسىء الى المسلمين ، وتقدم الى العالم صورة شائهة قاتمة عن الاسلام الذى يحمى نفس الانسان ، وفيـه (من أجـل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل أن من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا) سـورة المائدة ٥ : ٣٢ .

سليمان حلبى هذا ، الأفاق الأحمق ، والقاتل المأجور ، الذى لم يذكر آية واحدة من القرآن أو قاعدة واحدة من الشريعة تبرر فعلته ، هو الذى صوره البعض بطلا من أبطال العرب ورمزا من رموز مصر ، فأطلق اسمه على شارع مهم فى وسط القاهرة ، بينما أهملت أسماء كثيرين من المصريين والعرب ، ممن هم أبطال فى الحقيقة ورموز فى الأصل ونجوم فى الضمائر - فما هى العلة فى اضفاء بطولة زائفة على شخص آفاق أحمق ، وقاتل مأجور ، تجعل منه رمزا فى ضمير الأمة وفى نفوس الناس ، فتحيطه بهالة من الأكاذيب والافتراءات تمنع الناس من معرفة الحقيقة أو تصدمهم بشدة اذا ما عرفوا ولو بعضا منها ؟ ولماذا نعنى باضفاء هالات من البطولة وحالات من الفخامة على المهيج والمهرج ، والمدعى والزاعم ، والمحرف والمزيف ، فنشوه التاريخ ونبلبل العقول ونقلقل الضمائر ، الأمر الذى لابد أن يتأدى بالأمة ويتطرق بالناس الى أن يعيشوا فى التزييف والتحريف ، ويحيوا بالأوهام والأحلام ، فلا يقدروا على مواجهة الواقع ولا يستطيعوا استيعاب الحقيقة ، فاذا استفاق منهم أحد أو استرد وعيه شخص ، ردد ما قاله الشاعر « أنا من ضيع فى الأوهام عمره - نسى التاريخ أو أنسى ذكره » !



الحملة العسكرية والصدمة الحضارية

تشير وقائع الأحوال ، وتفيد شواهد التاريخ ، أن الفرنسيين كانوا قد غزوا مصر ليستقروا فيها ، وهذا شأن الغزاة .. ووضع كل من غزا مصر قبل الفرنسيين ، كالعثمانيين والعرب والرومان والاغريق والأشوريين والفرس . فلقد كان هناك صراع بين فرنسا وانجلترا ، منذ سنين بعيدة قبل الحملة الفرنسية على مصر . وفى سبيل الغلبة فى هذا الصراع ، التفتت كل منهما الى منطقة الشرق الأوسط ، وبلاد الشرق الأقصى ، والقارة الافريقية ، وهى نظرة عالمية .. بتقدير ذلك العصر ، الذى كان يستبعد الأمريكتين من خارطة العالم ، لأكثر من سبب . وكانت السلطنة العثمانية قد ضعفت وغلب عليها الوهن ، فبدأت كل من فرنسا وانجلترا فى السباق لاغتنام أملاك السلطنة فى الشرق الأوسط . سارعت فرنسا بغزو مصر ، على أن يكون وجودها فيها قاعدة تنطلق منها الى بلاد الشام

حتى حدود السلطنة العثمانية شرقا ، وتندفع منها الى بلاد المغرب العربى حتى ساحل المحيط الاطلسى (أو الأطلنطى) غربا ، وتتوثب من ثم الى بلاد غرب أفريقيا. جنوب الشمال الافريقى الذى تتكون منه بلاد المغرب العربى • ودخلت انجلترا السباق بسرعة ، وخاصة مع خوفها من أن يؤدى الاستقرار الفرنسى فى مصر الى قطع الطريق عليها في الوصول الى الهند ، جوهرة التاج البريطاني ، وبلاد الساحل العربى المتاخمة لها ، والتى كانت تكون ساحل عمان ، وصارت دولة الامارات العربية وسلطنة عمان وامارة الكويت • وفي سبيل الغلبة على فرنسا فقد تعاونت انجلترا مع السلطنة العثمانية لمحاربة الفرنسيين واخراجهم من مصر ، وأرسلت أسطولها الذى حطم الأسطول الفرنسى فى موقعة أبى قير فى أغسطس سنة ١٧٩٨ ، مما أدى الى انحصار الجيش الفرنسى فى مصر ، وسهل بعد ذلك أمر خروجه منها ، خاصة لاحتياج فرنسا ، فى عهد نابليون، الى جنودها لدعم انتشارها فى أوروبا •

غير أن عجلة الغزو والاحتلال لبلاد الشرق الأوسط ظلت تدور بين انجلترا وفرنسا ، حتى استقرت بعد اتفاقية سايكس بيكو سنة ١٩٠٤ ، فصارت انجلترا

تحتل مصر والسودان ، وهما بلد واحد ، وفلسطين (واقعيا ثم انتدابا من عصبة الأمم) باعتبار آنها (أى فلسطين) هى الجناح الشرقى لمصر · بينما أصبحت فرنسا تحتل بلاد الشام (سوريا ولبنان) وبلاد المغرب العربى (تونس والجزائر ومراكش الذى تغير اسمها الى المغرب) · ومن هذه المنطقة تابعت فرنسا احتلالها لبلاد غرب أفريقيا ، التى مازالت ـ بعد تحررها ـ ترتبط بفرنسا بأهم رابط ، وهو اللغة الفرنسية التى صارت لغتها ، ودخلت بها فيما يسمى بالفرانكوفونية ، أى مجموعة البلاد التى تتخذ من اللغة الفرنسية لغة أولى ، فتكون هذه اللغة لسانها وبيانها ·

اتخذ الاستعمار ، أو الاحتلال الأوروبى شكلا جديدا ، يناسب عصره ويمهد له سبل المستقبل · فلقد كان الغزاة من قبل يعملون على هزيمة جيش البلد المغزو ، ولو فى موقعة واحدة ، فتصبح البلد أمامهم مفتوحة ، ومن ثم يعينون فيها حاكما أو أكثر منهم ، ويتركون فيها حامية عسكرية من جنودهم ، توطد سلطة الحكم ، وتكون قادرة على ضرب أى معارضة أو مقاومة لها ، فتستمر فى نهب أموال الشعب المحتل وتسخيره فى تحقيق أهدافها ، بعد أن تجرده من أى قوة ، وتمنعه من تكوين أى فرق عسكرية · وبغير الذهاب بعيدا ،

فان الجيش العثماني ، وهو جيش الاحتلال السابق والمعاصر للحملة الفرنسية ، هزم جيش المماليك بقيادة طومان باى في موقعة الريدانية سنة ١٥١٧ ثم دخل مصر . فدانت له ، وحولها الى ايالة عثمانية (أى ملكية آلت إليه) ونقل الخلافة منها الى الأستانة ، ممن قيل إنهم عباسيون الى من سموا بالعثمانيين، وهم فى الأصل قبائل تتارية . ونهب سليم الأول كثيرا من كنوز مصر ، وتحفها وآثارها الاسلامية ، كما امتص منها دماء المهارة ومياه الحضارة ، فنقل الى الاستانة ألفا من مهرة الصناع ، الذين كانوا يحملون العلم والفن ، وكانوا يمثلون التقنية (بالمفهوم العصرى لهذا اللفظ) . وحكم العثمانيون عن طريق وال يعين من الاستانة كل عامين ، بينما كانت مقاليد السلطة فى يد المماليك . وضربت على مصر الجزية ، فظلت تدفعها حتى سنة ١٩٥٥ (بطريق الخطأ) تحت اسم الصدقة .. واعتصر الاحتلال العثماني والعسف المملوكي قوى مصر والمصريين حتى أدى الى الحال التى يصفها الجبرتى ، من انحطاط وضعف وجهل .

ومع أن الجبرتى شيخ أزهرى ابن شيخ أزهرى ، أى انه من علماء عصره ، ان لم يكن أعلمهم ، فقد بدا ،

عليه الانبهـار وظهـر عليـه الاندهاش بكل ما قدمه الفرنسيون • وكان هواه ـ على ما يظهر من كتابه ـ ضد العثمانيين والمماليك، بل وضد الغوغاء والحرافيش والأزاعر ومن سماهم الحشرات (أى سفلة السفلة) ، ممن يقال انهم العوام أو العامة ، وهم أكثر الناس •

واضح الأمر أن الفرنسـيين قبـل أن يغزوا مصر كانوا قد درسوها جيـدا ، فتعرفوا الاقليم ، ودرسـوا طباع الشعب وأثر التدين فيه وعليه ، ورسموا خططا شاملة متكاملة للقرار فيه • منها اعادة تخطيط القاهرة ، وانشاء كبار على النيل ، وتأسيس ديوان من المشـايخ لادارة شئون الحكم (يتسلف مجلس الوزراء) ، واجراء مسح شـامل للبلد ماديا واجتماعيـا (هـو ما قام به علماؤهم الشبان فى كتاب وصف مصر) ، وشق القنوات وتطهير الخلجان (ومن ضمن ذلك اعادة فتح القنوات التى تصل النيل بالبحر الأجمر ، وهى التى تطـورت الى حفر قناة السويس) ••• والى غير ذلك •

فى حين أن الفرنسيين كانـوا دارسين ومسـتعدين ومستعدين لغزو مصر والقرار فيها ، فان المـاليك ، والعثمانيين ، كانوا فى غفلة كاملة وسلبية تامة وجهالة مطبقة • ذلك أنهم لم يعرفوا شيئا عن فرنسا أو غيرها ،

ولم يصلهم أى خبر عن الغزو الفـرنسى ، ونم تكن لهم حامية في الاسكندرية لصد الغـزو ، ولا مـواقع فى الطريق الى القاهرة لتعويق الغزاة ، ولم يخرجوا لملاقاة الجيش الفرنسى خارج القاهرة ، ولم يعرفوا أى شيء عن عدده وعدته وأفراده وعتاده ، ولم يرتبوا أى وضع لحال النصر أو حال الهزيمة ، وانما قعدوا ـ بغير همة ـ وهو ما تعجب له الجبرتى، الرجل المدنى غير العسكرى. مراد بك بعصابته غرب النيل فى منطقة امبابة (لأن الجيزة كانت خطته وحصته) ، وابراهيم بك بعصابته شرق النيل فى منطقة بولاق ، والمماليك المتجيشون بغير زى موحد ، ولا نظام عسكرى ، ولا ترتيب للحـروب الحديثة ، فواجهوا الجيش الفرنسى كعصبة من الهمج أو زمرة من قطاع الطـرق التى تهجم عـلى قطار فى الصحراء ، أو تقطع الطريق على قافلة من التجار ، واذا بهم يواجهون ما لم يسمعوا عنه ولم يدركوا شأنه ، مما وصفه الجبرتى بدقة فقال « الطابـور الذى تقـدم لقتال مراد بك انقسم عـلى كيفية معلومة عنـدهم فى الحرب وتقارب من المتاريس بحيث صار محيطا بالعسكر من خلفه وأمامه (أى حاصر المماليك) ، ودق طبـوله وأرسل بنادقه المتتالية (الآلية) والمدافع ... بحيث خيل للناس أن الأرض تزلزلت والسماء عليها سقطت ،

واستمر الحرب والقتال نحو ثلاثة أرباع الساعة ، ثم كانت ••• الهزيمة على العسكر الغربى (فى منطقـة امبابة) ، فغرق الكثير من الخيالة (الفرسان !!) فى البحر (نهر النيل) لاحاطة (حصار) العدو بهم وظلام الدنيا ••• وفر مراد بك ومن معه » الى الصعيد ، بينما فر ابراهيم بك ومن معه الى بلاد الشام ، فلم يحاول ولو مجرد مناوشة الغزاة •

هل انهزمت مصر فى هذه الموقعة ؟ أبدا ! لقـــد انهزم المماليك الطغاة المستبدين • انهزم الجهل أمام العلم ، وانكسرت البداوة أمام الحضارة • أما المصريين، فما ان بدرت لهم البادرة وسنحت لهم السانحة ، بعـد سنوات قليلة ، حتى فتح الجيش المكون منهم بلاد الشام واستخلصها من حكم العثمانيين وانتصر فى كل موقعة خاضها حتى بلاد اليونان ، ولم ينهزم قط أو يندحـر أبدا ، الى أن طرق أبواب السلطنة العثمانية • ولـولا أن تكالبت عليه القوى العالمية لدخل الاستانة واستعاد الخلافة وحكم البلاد التى كانت تحكمهـا السلطنة فى افريقيا وآسيا وأوروبا • فما بين هزيمة المماليك أمام الفرنسيين سنة ١٧٩٨ وبين سنة ١٨٢٣ (حيث تدخلت القوى العالمية) خمسة وعشرين عاما لا غير (٢٥ سنة) •

فما أعجبه وما أعظمه شعبا ، استطاع خلال هذه المدة القصيرة أن يحقق كل تلك الفتوح والانتصارات !! انه شعب ينتصر بالحرية وينهزم بالعبودية ، ينسحق بالجهالة وينتفض بالحضارة ، وتلك سمة العناصر السوية ، مهما أخذ عليها أنها لم تقاوم استعباد العثمانيين والمماليك لها . ذلك لأن قوى الاستعباد ركنت الى تفسير خاطيء للدين وعمدت الى تأويل مغرض للشريعة ، فشل هذا وذاك ارادة الناس وغل عقولهم •

ونتيجة للانحطاط الاجتماعي والانحدار العقلي ، فقد سقطت الأخلاقيات وتدنت السلوكيات • فعندما خشي الناس مغبة دخول الفرنسيين الى القاهرة بادر كثيرون بالهروب منها «فلما خرجوا من أبواب البلد وتوسطوا الفلاة تلقفتهم العربان والفلاحون فأخذوا أمتعتهم ولباسهم وأحمالهم ، بحيث لم يتركوا لمن صادفوه ما يستر عورته أو يسد جوعه ••• وربما قتلوا من قدروا عليه أو دافع عن نفسه ومتاعه ، وسلبوا ثياب النساء ، وفضحوهن وهتكوهن (أى هتكوا أعراضهن)» • فأهل البلد أو الوطن الواحد، أصحاب العقيدةالواحدة ، لم يغيثوا اخوانهم وأهليهم ، وهم يفرون من الأجنبي الغازى ، وانما وجدوها فرصة ، كوحش تصيد فريسة،

فسلبوهم ونهبوهم وهتكوا أعراض النساء ، وقتلوا من حاول مقاومتهم أو شرع في الهرب منهم .

وعندما أنس الناس الى الفرنسيين ، وتبينوا أنهم لا يأخذون السلع والبضائع غصبا ونهبا كما يفعل العثمانيون والمماليك ، وانما يدفعون ثمن ما يأخذون بالأسعار التي يشترون بها في بلادهم ، وهي أكثر من الأثمان التي يتوقعها البائعون ، غالوا في الأسعار ، ورفعوا في الأثمان ، ثم زادوا فعرضوا على الفرنسيين شتى أنواع المآكل والمشارب ، فلما راجت سلعهم ، غشوا وأفسدوا ، فصغروا الخبز وعجنوا الدقيق بنخالته (أو بترابه ، كما يقول الجبرتي) .

وعندما أشيع أن الفرنسيين سوف يرحلون من مصر ، اثر اتفاقهم مع العثمانيين ، في عهد كليبر ، وكما يقول الجبرتي فان « الرعايا وهمج الناس من أهل مصر ... استولى عليهم سلطان الغفلة ونظروا للفرنسيين بعين الاحتقار وأنزلوهم عن درجة الاعتبار ، وكشفوا نقاب الحياء معهم بالكلية ، وتطاولوا عليهم بالسب واللعن والسخرية ولم يفكروا في عواقب الأمور ، ولم يتركوا معهم للصلح مكانا » . وما ان عاملهم العثمانيون وجنودهم حتى ضجوا بالشكوى وآنوا

من المظالم ، وتمنوا عودة الحكم الفرنسى ، ذلك لأنه لم تحدث لهم مظالم ولم تقع عليهم مغارم أثناء هذا الحكم، فى حين أن وطأة الظلم وشدة العنت كانت وظلت تقع عليهم من العثمانيين والمماليك وجنودهم وأشياعهم .

وخلال مرتى الهيجان ، التى يقال انهما ثورتان ، بعث القائد الفرنسى برسائل الى المشايخ ، أعضاء ديوان الحكم ، فلم يرد عليه أحد . ولما وقع الضرب وتحققت الهزيمة سارعوا الى القائد يعتذرون له ويطلبون منه العفو

وكان كل من هذين الهيجانين بفعل الغوغاء والأزاعر والحشرات (بتعبير الجبرتى) بغير قائد يقودهم أو زغيم يسوسهم . وسرعان ما تحولت الى النهب والسلب والخطف فحل بالناس الكرب والبلاء والعذاب .

فهل يقوم أى عاقل بحركة ضد الغزاة ــ مع ضرورة المقاومة ــ بغير ترتيب ودون تدبير ، وبلا أى رياسة أو زعامة ، وبغير حساب للعواقب أو توقع للنواتج .

ان أى حرب دون اعداد ، هزيمة ماحقة ، يلحقها المحارب بنفسه وبلده . وأى مقاومة بغير ترتيب

هزيمة ساحقة ، ينزلها المقاوم بنفسه وبلده . وغالبا ما تجهض مثل هذه الهزيمة أو تؤخر أى اعداد آخر لحرب ناجحة أو مقاومة مجدية.فعالة ضد العدو . لكن الغوغائية الهوجاء لا تحسب الوقائع ولا تزن الأمور ولا تقدر النتائج ولا ترى العواقب ، فتندفع فى الهيجان السريع ، الذى يوقع بها الأذى الجسيم ، ثم تسكن سريعا ، كفورة تغور أو نار تخبو .

وهل يسوغ فى أى منطق أن تتحول الثورة ضد المحتل ، سواء كانت لها صبغة وطنية أم كانت عليها مسحة دينية ، الى العدوان على المواطنين الأبرياء بالسلب والنهب والخطف وهتك الأعراض ؟

ويقال دائما ان الحملة الفرنسية أحدثت فى مصر . وفى المشرق العربى ، صدمة حضارية ، وينكر البعض ذلك ، ويدور الكلام اثباتا أو نفيا ، ايجابا أو سلبا فى صورة مرسلة وهيئة مطلقة ، دون تحديد الأدلة وبغير بيان المراجع . لكن الذى يستفاد من كتابات الشيخ الجبرتى ، المصرى الأزهرى العدل ، أنه كان يستغرب ويندهش لأشياء كثيرة ، نراها حالا (حاليا) ولا ندرك مدى ما كانت عليه من جدة ومدى ما أدت اليه من تغيير . فمما قدمه الفرنسيون :

١ ـ تأسيس ديوان للحكم من كبار المشايخ ، هـو ما أصبح يسمى بعد ذلك مجلس الوزراء •

٢ ـ انتخاب رئيس هذا الديوان بدلا من تعيينه • وهذا الانتخاب بتحرير أوراق بالرأى كان غريبا جدا على الجبرتى ، حتى انه سماه القرعة ، لغرابته وعدم وجود اسم دارج له فى اللغة العامة المستعملة آنذاك •

٣ ـ ضبط الأملاك والأعمال والأوقاف ، وتحديد الضرائب بأسلوب منظم عام وقواعد محـددة معـروفة للجميع •

٤ ـ انشاء محـكمة ، سـماها الجبرتى ديوانا ؛ ووضع نظام لادارة الجلسات واثبات أقوال الخصوم •

٥ ـ ارساء مبدأ استقلال القضاء ، بمنح أعضاء الديوان والقضاة والموظفين والسعاة مرتبات مجزية ، مجزية ، تمنعهم من الرشوة أو أخذ الجعول •

٦ ـ قيد أسماء المواليد والوفيات •

٧ ـ اثبات عقود الزواج فى دفاتر رسمية •

٨ ـ الاخطـار عن الغرباء والأجانب فى مدى ٢٤ ساعة •

٨ ـ دفن الموتى فى مقابر بعيدة ، بدلا من دفنها فى مقابر داخل المساكن أو على مقربة منها ٠

٩ ـ الزام النـاس دفن الموتى فى حفـر عميقة ، بعيدا عن سطح الأرض ٠

١٠ ـ الزام الناس النظافة من كنس ورش وتبخير ووضع الفراش تحت أشعة الشمس على الأسطح لتهويته وتنقيته ٠

١١ ـ تخطيط القاهرة بانشاء طرق واسعة تصـل من وسطها الى أطرافها ٠

١٢ ـ انشـاء منتزهات عامة ، هى التى تطـورت فأدت الى انشاء حديقة الحيـوان وحـديقة الأورمان ، وغيرها ٠

١٣ ـ اقامة كبار على النيل بطريقة فنية هندسية، تربط البر الغربى (القاهرة) بالبر الشرقى (الجيزة)٠ وقد انهارت هذه الكبارى بعد رحيل الفرنسيين فلم يعد العثمانيون انشـاءها ، حتى تم ذلك فى عهـد أسرة محمد على ٠

١٤ ـ اقامة مكتبة عامة بها كتب فى كل العلـوم والفنون ، وخرائط لكل أنحاء الكرة الأرضية ٠

١٥ ــ انشاء المجمع العلمى ، ووضع جميع فروعه فى منطقة واحدة ٠

١٦ ــ استعمال آلات حديثة ، كالعربة الصغيرة التى تنقل عليها المواد والأشياء بدلا من وضعها فى القصاع (جمع قصعة) تحمل على الرءوس ٠

١٧ ــ استخدام موائد عالية عند تناول الطعام ، بدلا من الطبليات (جمع طبلية) أو افتراش الأرض ٠

١٨ ــ استخدام أدوات دقيقة الصنع فى العمل العادى (فئوس و «قزم») مما يفيد أن المصريين كانوا يستخدمون أدوات رديئة الصنع ٠

١٩ ــ استخدام قواعد مستخرجة من علم جر الأثقال لانقاذ سفينة غارقة ٠

٢٠ ــ استخدام البارود فى الهدم ٠

٢١ ــ وجود زى موحد للجنود ٠

٢٢ ــ تدريب الجنود على فنون القتال ٠

٢٣ ــ استخدام الطبل والموسيقى بأنغام مختلفة ، فثم دق للحرب وثم نغم جنائزى عزف عند تشييع جنازة كليبر ٠

٢٤ ـ انشاء محكمة لمحاكمة سليمان الحلبى ، وعدم قتله فور اعترافه ، بما فى هذه من اجراءات ، ومرافعة محام معين من الفرنسيين للدفاع عن المتهمين ، ومداولة القضاه ، واعلام المذنبين بالحكم بعد ادانتهم .. الى غير ذلك .

٢٥ ـ اتباع النشر كوسيلة لاعلام الشعب بالقرارات والأحكام ، ولم يقتصر الأمر على المناداة بذلك ، بل نشرها بطريقة واضحة منظمة .

٢٦ ـ استعمال المطبعة .. الى آخر ذلك .

أما ما لم يستوعب الجبرتي معناه ، ولم يتمثل نتائجه ، فهو كثير ، منه توجيه الخطاب الى المصريين عامة ، بدلا من توجيهه الى طائفة دون طائفة أو فئة دون فئة ، وهو فهم جديد فى وقته ، كان يوطىء لعودة الأمة المصرية ، التى شرذمها الاستعباد العثمانى وهرأها الاستذلال المملوكى . ومنه قاعدة انتخاب الحكام عموما ، بما يجعل للشعب حقا فى هذا التعيين ، وما لابد أن يؤدى اليه ذلك من حق مساءلة الحكام وعزلهم . ومنه تقرير مبدأ المساواة بين المواطنين ، وهو أساس قيام الدولة المدنية التى تنبنى على حق المواطنة

لكل فرد من أفراد الشعب ، ومساواته مع جميع المواطنين في الحقوق والواجبات ٠

هذه العناصر الحضارية ، من مادية ومعنوية ، كانت آفاقا جديدة وأنوارا مبهرة وحوافز مثيرة ، هى التى هزمت عصابات المماليك ، ومهدت الطريق أمام مصر لدخول الحضارة من أوسع أبوابها ٠ هذا بالاضافة الى اكتشاف الحضارة المصرية ، وهو كشف جليل بكل المعايير ، وضع لمصر مكانة عظمى فى التاريخ الانسانى وجعل لها مكانا مميزا فى عقل وقلب ووجدان كل فرد فى كل أنحاء العالم ٠

وتبدو العظمة الحقيقية لمصر والمصريين ، فى أن البلد التى كانت ايالة ، أى ضيعة ، مملوكة للعثمانيين وأذنابهم من المماليك العبيد ، صار بعد حوالى ٢٥ عاما ملأ السمع والبصر ، وبلدا فعالا مؤثرا فى الوضع السياسى العالمى ، ولم يزل كذلك حتى الوقت الحالى ٠ كذلك فان الشعب الذى كان قد تبدد شيعا وتفرق طوائف ، وصار مجاميع ضالة من الغوغاء والأزاعر والحرافيش ، قد تحول فى سنوات قليلة الى أن يصبح شعبا موحدا متميزا ٠ ففى أواخر القرن التاسع عشر ، وحتى منتصف القرن العشرين كان أبناء هذا الشعب

يصنعون الحضارة ويقدمون الاستنارة ، كمنارة عالية وشعلة وهاجة لكل العالم العربى والاسلامى ، وكانت طبقة المثقفين لا تقل عن مثيلاتها فى أى بلد أوربى مثل فرنسا وانجلترا وألمانيا • فكان أبناء مصر هم أفضل الأطباء والكتاب والقضاة والفقهاء والمعلمين والموسيقيين والمغنيين والمحامين والصحفيين والمهندسين والمفكرين ، بحيث أسهموا فى تشكيل كل عقل عربى وساعدوا فى تكوين كل عقل فى العالم الاسلامى، على ترامى أبعاده •

وبعد ١٢٠ عاما من الفتن والهياج الذى حدث أيام الحملة الفرنسية انتفضت مصر شعبا واحدا ثائرا واعيا ، فى ثورة ١٩١٩ ، الثورة الحقيقية الشعبية فى تاريخ مصر ، فوضعت أسس الوحدة الوطنية ، والدولة المدنية ، وحكم القانون الذى تأدى الى وضع دستور ١٩٢٣ • وقد كان أثر هذه الثورة بعيدا فعالا ، حتى قال المهاتما غاندى : لقد تعلمنا الثورة من مصر (يقصد بأسلوبها الواعى الدقيق الذى جمع كل الأمة فى نسيج واحد بغير تفرقة بين مسلم وقبطى) • ويبدو الأثر الأخلاقى لهذه الثورة فى حالات الايثار واتجاهات التضحية التى هيمنت على الناس جميعا ، فقد كان كل فرد يقدم نفسه ضحية وهو سعيد ، مادام أنه بدمائه

يفتدى حرية وطنه وحرية مواطنيه . ومهما كانت لثورة ١٩١٩ من مثالب ، فانها كانت بوتقة ممتازة صهرت الشعب نفسه كله فى وحدة واحدة ، وأسفرت عن معدن ممتاز ، فاتجه الشعب نفسه الى صنع الحضارة ، بعيدا عن حلبة السياسة وحومة الحزبية ، مع أنهم شاركوا فى هذه وتلك بالعرق والدم .

ان بعض الناس أعلنوا أنهم صلوا لله فرحا وشماتة فى هزيمة مصر ١٩٦٧ ، بقالة أن هذه الهزيمة كانت هزيمة للماركسية التى كانت تعضد وتساند نظام الحكم فى مصر ، فى محاولته للصراع مع الغرب واسرائيل . وهذا المفهوم الخاطىء بلا شك ، والذى يصلى لله لهزيمة وطنه ومصرع آلاف الضباط والجنود ، وخسارة مليارات الجنيهات التى دفعها الشعب من ماله ليشترى بها الأسلحة والطائرات التى تحطمت فى المدارج أو تركت فى الصحراء ، هذا الاتجاه هو الذى يتباكى على هزيمة المماليك أمام الجيش الفرنسى . مع أنه اذا كان الفرنسيون مستعمرون فان المماليك والعثمانيين كانوا مستعبدين . ومع أن كلا من الاستعباد والاستعمار بلاء شديد يتعين على الشعب أن يحاربه ويكافحه طوال الوقت وفى كل مكان كان ، الا أن دموع التماسيح

تتباكى أسفا على الاستعباد ، لأنه كان يستظل بالدين ، وتتشاكى أسى من الاستعمار لأنه كان من رياح غربية ٠

لن تعرف مصر الحقيقة ، وتتفاعل مـــع روحها ، الا اذا قيمت المسائل بموضوعيـــة وعقلانيـــة ، فتركت انفعال الدروشة الى اتزان العقل والخلق ٠ فتدرك من ثم أن الاســـتعباد والاســـتعمار ضـــد الدين والشرع والانسانية ، فترفض هذا وذاك ، وتعمل على تحـــرير نفسها بالعلم والأخلاق والانسانية والحضارة ٠



من الأمس حتى الغــد !

لا يمكن تغيير وضع الا بعد معرفة كل الحقــائق عنه • ولا يمكن تعديل وصف الا اثر تحرى كل الأسباب المتعلقة به • وبغير معرفة الحقــائق ، ودون تحــرى الأسباب ، يتعذر ، ان لم يكن من المستحيل ، أى وصول الى علاج أو تصحيح أو تعديل علمى مفيد منتج فعال •

مقتضى ذلك كشف تاريخ الموضوع ، وتحليل كل أسبابه وعلاقاته وتطوراته ، حتى يتحدد التوصيف ، أو التكييف ، أو التعــريف ، فينجح من ثم أى علاج أو تصويب أو تغيير • ففى العصر الحالى ، لا يقطع الطبيب بالعلاج الا بعد الاطلاع على نتائج التحليلات المعمليــة المتكاملة للمريض ، بحيث يستطيع تحديد الداء ، ثم وصف الدواء • ورجل القانون ، عامة ، لا يمكنه أن يصل الى الحكم الصحيح فى أى نزاع الا بعد تكييفه ، أى وضع الوصف القانونى له ، الذى يصل به الى الحل الأمثل •• وهكذا •

من هـذا المعنى ، فان التحليـل العلمى الواقعى الصحيح للتاريخ ، يكون ضرورة لا صارف عنها لاحداث أى تغيير فعال فى الحاضر • وعلى العكس من ذلك ، فان الغش والتحايل والخداع فى عرض الماضى ، أو ابتسارة أو اختصاره ، يؤدى الى التحريف والتزييف فى حقيقته ، بما يحول دون أى تصحيح للمساوىء التى يسقطها على الحـاضر ، ويمنع أى تجنيب للمخـاطر التى تؤثر فى أحداث الواقع •

العلم يعرف حالا (حاليا) ، بل ويؤكد ، وجـود ارتباط شديد بين حلقات الماضى والحاضر والمستقبل ، وقيام تأثير واضح بين الأجداد والآباء والأحفاد ، وظهور حلقات متواصلة بين الأمس واليوم والغد • ودراسـة تاريخ مصر دليل علمى واثبات يقينى على أن السلوكيات القديمـة لم تزل تجـزى فى المجتمـع ، وأن التراثات السالفة ممتدة الى الحاضر وفعالة فيه • ويعنى ذلك أن تكون دراسة التاريخ ، بحياد وأمانة ، مدخلا لازما لفهم الواقع والتأثير فى الحاضر ، وامكان تشكيل المستقبل •

ومما سـلف سرده من واقعات يؤرخ لها الشـيخ الجبرتى ، نتخير بعضا منها يترابط بالحاضر ويتداخل

فيه كى ما يتبين مدى التشابه ، ويظهر وجه التأثير ، ويعرف سبيل التغيير ، ان أريد تغيير صحيح .

(أ) فالفرنسيون كانوا يعرفون الكثير جدا عن مصر والمصريين . فقد كان تجار منهم يترددون عليها للتجارة ، لكن الراجح أنه كان مع هؤلاء التجار أو من بينهم متخصصون فى دراسة الشعب المصرى ، ودراسة مصر ذاتها . وسواء قيل عنهم انهم علماء أو ساسة أو جواسيس أو مستشرقين ، فالنتيجة واحدة ، هى أنهم (والانجليز كذلك) عرفوا الكثير عن مصر والمصريين ، مما سهل لهم تنفيذ أغراضهم والنجاح فى تحقيق أهدافهم . أما المصريين ، والعرب كذلك ، فقد كانت لديهم ، ومازال عند الكثيرين منهم ، حالة من الانكفاء على الذات والانحصار فى النفس ، تجعلهم يضخمون جدا من ذواتهم وأنفسهم ، وينفون الغير تماما ، كأنه لا يوجد أبدا ، ولم يوجد قط . فقد كانوا يعممون الوصف على الغربيين فيقولون انهم الفرنجة (الافرنج)، دون تحديد بلادهم وأجناسهم وشعوبهم ، وبغير دراسة علمية متواصلة لكل فرع منهم . فلا توجد دراسات استغرابية (أى للغرب) على غرار دراساتهم الاستشراقية (أى للشرق) . والمعلومات عن بلاد الغرب

والغربيين مهوشة مشوشة ، هى تراكم اشاعى ، وتناقل سماعى • وحتى الآن ، فان الكثيرين يرفضون دراسة الشرائع اليهودية والمسيحية وغيرها ، ويحكمون عليها بغير علم • ومع وجود اسرائيل على حدودنا الشرقية ، لا توجد آكاديمية لدراسة تاريخها وشعبها وأحزابها وكيفية التأثير عليها ، فى حين أن كثيرا من الاسرائيليين متخصصون فى اللغة العربية والشريعة الاسلامية والحياة المصرية •• وهكذا •

هذا الجهل بالغير ، وذلك النفى للآخر ، مما يخيل معه للمصريين والعرب أن الآخر غير موجود وأن الغير ليس مؤثرا ، فاذا ما فوجئوا بالحقيقة اضطربوا واختلطوا ، وذهبوا مذاهب شتى ، ليس منها مذهب واحد صائب أو سليم •

فى العصر الحالى ، وعندما بدأت الحرب العالمية الثانية ، شاع بين المصريين أن ايطاليا ليست الا جزمة (أى حذاء) • وكانوا فى ذلك يخلطون بين شكل الأراضى الايطالية ، التى هى أشبه بساق يمكن وصف قدمه بالحذاء أو الجزمة ، وبالحذاء ذاته ، أو الجزمة ، وهو وصف يقصد به تحقير الايطاليين والتهوين من شأنهم •

.. وعندما كنت تلميذا في رياض الأطفال قال لنا مدرس عن باريس ، التي كان الألمان قد احتلوها ، انها مدينة ساحرة ، شوارعها من البلور ، وهي شوارع تتحرك من مكان الى آخر . وقد جهدنا كأطفال في أن نتصور ذلك فذهب بنا التخييل والتخليط كل مذهب شارد ، مع أن الأسلوب التربوى الصحيح يعنى بأن يقدم الى الأطفال معلومات حقيقية ، ومفاهيم صحيحة ، وأن يثير خيالاتهم بصورة علمية بناءة ، حتى تتكون لهم عقول سوية وتتشكل لديهم ملكات صحية . وبعد مرور أعوام طويلة ، وعندما زرت باريس أول مرة ، تذكرت ما قاله لنا ذلك المدرس ، فأدركت أنه وغيره ، خلط المجاز بالحقيقة ومزج التشبيه بالواقع . فلابد أن بعض من زار باريس من أبناء مصر في العشرينيات والثلاثينيات رأى شوارعها نظيفة لامعة ، بالمقارنة بشوارع وحوارى القاهرة وغيرها ، فقال ان شوارع باريس بلور . لكن الذى سمع لم يدرك أن لفظ بلور هذا تشبيه وليس حقيقة ، وأنه مجاز وليس واقع ، فتكلم ، بل وبث في عقول الأطفال ، معنى مخلوطا وفهما مغلوطا . وهذا وحده مثل مادى واقعي صحيح لسوء التقدير في فهم الغير . أما الشوارع التى تتحرك في باريس ، فانها ممر طويل (في محطة مترو

مونبارناس) يقف عليه الركاب فيسير بهم ، بقوة الكهرباء ، ليوفر عليهم الحركة • وهو أمر صار شائعا في أغلب مطارات العالم (كمطار كنيدى بنيويورك ، ومطار أمستردام ، ومطار زيورخ وغيرها) • فالذى قال عن الممر انه شارع يتحرك أوقع في عقول السامعين أن شوارع باريس تتحرك ، مما ألهب الخيالات بأمور غير واقعية ومفهوم غير حقيقي ، قد تترتب عليها أفعال وأقوال ، تصير مثل بيوت من الرمال ، وتكون أقرب الى نسيج من الخيال •

(ب) جاء فى تاريخ الجبرتى أن حكام مصر من المماليك لم يكونوا مستعدين للقتال أبدا ، ولم يتهيأوا للمعركة مع الفرنسيين ، ولم يضعوا أى ترتيب لحماية مصر من أى عدوان • فلم يقيموا فى الاسكندرية حامية لصد أى عدوان ، ولم يرسلوا أى مقاتلين (لأنهم لم يعرفوا الجيش بالمعنى العصرى) لتأخير الجيش الفرنسى فى الطريق الى القاهرة ، ولم يعرفوا عن هذا الجيش أى شىء يتصل بعدده أو عدته أو نظامه أو ترتيبه أو طريقته في القتال ، حتي ان الجبرتى وهو يصف معركة امبابة قال ان الفرنسيين تحركوا وفق نظام وترتيب لديهم ، بما يعنى أنه ، وهو العالم الأزهرى ، لم يكن

يعرف هذا الترتيب أو ذلك النظام ، واعتبر أنه خاص بالفرنسيين وليس هو الأسلوب العصرى للجيوش والقتال. وكان من نتيجة اتباع الفرنسيين نظاما علميا حديثا فى المعركة أنهم أحاطوا بالمماليك ، أى حاصروهم ، فهزموهم فى ثلاثة أرباع الساعة ، وسقط الخيالة (الفرسان) المماليك فى ماء النيل وغرقوا .

وهذا الذى حدث فى عصر الحملة الفرنسية ، من المماليك ، تكرر بعد ذلك فى التاريخ المصرى الحديث أكثر من مرة .

ففى سنة ١٩٤٨ دخل الجيش المصرى الحرب مع اسرائيل وهو يصفها بأنها عصابات ، مع أنها كانت تملك جيشا أكثر عددا وأفضل عتادا من كل الجيوش العربية . ولم تعرف البلاد العربية كلها ، بما فى ذلك مصر ، أى معلومة عن قادة الجيوش الاسرائيلية ، أو أسلحتهم ، أو تعليمهم . ولم يكن لدى الجيش المصرى من الذخائر ما يصل به الى مدينة غزة ، واعتمد الحكام فى دخول الحرب على وعد من الانجليز ، غير مكتوب أو مؤكد ، بفتح مخازن أسلحة الجيش البريطانى فى الاسماعيلية أمام الجيش المصرى ، وهو ما لم يحدث . وفرح المصريون بتقدم قواتهم فى الأراضى الفلسطينية،

مع أنه كان تقدما بغير قواعد ودون ثوابت ، فجعل الجيش مكشوفا ، يسهل قطع الامدادات عنه وحصاره ، وهو ما حدث بالفعل ٠

وفى سنة ١٩٥٦ ، وعلى الرغم من اجتماع قادة من بريطانيا وفرنسا واسرائيل فى ضاحية سيفر خارج باريس ، وترتيب خطة حرب أكتوبر ١٩٥٦ ، فان مصر لم تعرف شيئا عن ذلك فى حينه ٠ وقيل ان الملحق العسكرى فى باريس أرسل الى القيادة السياسية ما يؤكد وقوع العدوان ، غير أنها لم تتأكد من ذلك الا عندما شاهد رئيس الجمهورية فوق سطح مسكنه طائرات بريطانية مهاجمة ٠

وفى سنة ١٩٦٧ كان أمر الحرب مؤكدا ، فان غلق الممرات البحرية الدولية يعتبر عملا من أعمال الحرب ، وقد أعلنت اسرائيل أن غلق مضايق تيران هو عمل من أعمال الحرب ضدها ، وشكلت وزارة حرب بالفعل ، بل وذكر رئيس الجمهورية المصرية أنه علم أن اسرائيل سوف تهاجم مصر صباح ٥ يونيو ، وأنه أخطر القادة العسكريين بذلك ٠ لكنه انصرف لحاله بعد أن أخطرهم، فلم يطلب وضع خطة عسكرية ، ولم يأمر باتخاذ ترتيبات خاصة ، ولم يسهر للتصرف ازاء الهجوم الذى

كان متيقنا منه . ولم يتخذ القادة العسكريون أى احتياطات أو تدبيرات لاحباط الهجوم ، بل ان قائد الجيش كان يحلق بطائرته فى أجواء المعركة مما شل أجهزة الدفاع الأرضى عن ضرب الطائرات المغيرة على الطائرات المصرية الرابضة فى مدارجها . بل وقيل فى ذلك ان مصر كانت تنتظر العدو من الشرق فاذا به يجىء من الغرب ، وهو أمر غير صحيح ، مما يؤكد أن القيادة السياسية والعسكرية ، حتى يوم ١٠ يونيو ، لم تكن تعرف كيف حدث ضرب الطائرات المصرية فى مدارجها ، مما أنهى الحرب فى بضع ساعات ، كما انتهت مقاومة المماليك للفرنسيين فى ثلاثة أرباع ساعة . وما أشبه الليلة بالبارحة ، مادام أسلوب التفكير والتصرف واحد ، لم يتغير ولم يتبدل ، وانما صار نهجا دائما وأصلا مستقرا .

(حـ) ويقول الجبرتى ان عامة الناس كانوا يقفون الى جوار ساحة المعركة فى امبابة وهم يصيحون ويصرخون ، وينص فى ذلك تحديدا « كأنما كانوا يحاربون بصياحهم » . وهذا التصرف بالذات ، أخطر سلوك المصريين والعرب . فهم يعتقدون أن الصوت مكافىء للعمل ، وانه كلما علا الصوت فقد تأكد العمل،

وبذلك يصبح الصياح عملا لديهم ، ويكون الصراخ فعلا في تقديرهم ٠

فالمصريون ، والعرب ، حتى الوقت الحالى ، والى أن يغيروا أنفسهم ويبدلوا طبائعهم ، ظاهرة صوتية ، وعارضة لفظية ، ونازلة مرضية ٠

(د) ويقول الجبرتي ان المصريين لما رأوا الفرنسيين يسيرون بينهم بغير أسلحة ودون عنف أنسوا اليهم فعرضوا عليهم البضائع من دجاج وبيض وغيره ٠ واذ تبينوا أن الفرنسيين يدفعون فيما يشترون أسعارا أعلى من السعر العادى ، قياسا على أسعار بلادهم ، اذا بهم (المصريون) يغالون فى الأسعار ويرفعون فى الأثمان ، وهو غش واستغلال وعدم أمانة ٠ اضافة الى ذلك فان الجبرتي يقول ان بعض سيئى الخلق من المصريين خبزوا للفرنسيين الدقيق بترابه ، وصغروا فيه ، وهو ــ كذلك ــ غش واستغلال وعدم أمانة ٠

وهذا الذى حدث مع الفرنسيين ــ قبل قرنين ــ مازال يحدث من المصريين مع المصريين ، ذلك بأن كل الناس فى مصر تشكو من غش الأغذية وغش الأدوية وغش الأقمشة وغش الحديد وغش الأسمنت وغش الموازين وغش المكاييل ، أى الغش فى كل أنواع

الصناعات والمأكولات والمعاملات ، وهــو أمر لا سبيل لدفعه ولا طريق لعلاجه ، لعدم وجود نظام خلقى مانع وعدم وجود نظام قانونى رادع ، وثبات التراث السلفى المخادع .

فالمسألة فى الغش وعدم الأمانة متأصلة من قديم. كان التحضر قد أخفاها وكان القانون قد واراها ، فما ان ذهب التحضر وسقط القانون ، حتى عادت سيرتها وعاودت سنتها .

(هـ) ويقول الجبرتى انه ما ان سمع المصريون أن الفرنسيين سوف ينسحبون من مصر اثر اتفاقهم عـلى ذلك مع العثمانيين حتى أظهروا العداوة للفرنســيين وقلبوا لهم ظهر المجن ، وكانوا يسبوهم ويهينوهم ولم يتركوا للصلح (أو لحسن العلاقات) مكانا . مـع أن المصريين ذاقوا الأمرين مــن العثمانيين ومن المماليك ورأوا منهــم مظــالم ومســاوىء يشــيب لهولهــا الولدان ، ويتحدث بفظائعهــا الركبان . فيما بعد ، عندما انسحب الفرنسيون ودخلت عســاكر العثمانيين قابلهم المصريون بالبشر والترحــاب وكانت النســاء تزغرد ، كما يقول الجبرتى ، كعادتهم فى توسم الخير من الجديد (مع أن العثمانيين والمماليك وجنودهم ليسوا

جدداً عليهم) • وما هى الا فترة قليلة حتى أدرك المصريون سوء فعل أوباش العثمانيين ـ كما يصفهم الجبرتي ـ وغلظة تصرفاتهم ، وشدة طغيانهم ، فتمنوا عودة الحكم الفرنسى •

ما الذى يمكن أن توصف به هذه الصورة ، وما الذى يمكن أن يقال فيها ، غير أن الناس كانوا ، مازلوا ، لا يعقلون الأشياء ولا يدبرون الأعمال ، ولا يحسبون الأقوال • انهم رعناء حمقى ، كريش فى مهب الريح ، يميل فى أى اتجاه ويضيع مع أى رياح • وحتى الآن ، فان الصورة التى رسمها الجبرتى بقلمه تتكرر دائما دون أى تعلم ، وتتوالى أبدا بغير أى تدبر ، وهو حال لابد من وقوعه واستمراره مادام العقل فى الآذان ، والفعل فى اللسان ، والوعى فى اللازمان (أو فى خبر كان) !

(و) ويثبت الجبرتى أنه خلال الهيجانين الذى حدثا ، وقت قيادة نابليون وأثناء قيادة كليبر ، أرسل كل من القائدين رسائل الى المشايخ الذين يتكون منهم الديوان الذى أنشأوه لحكم مصر ، فلم يتلق ردا على رسائله ، مما دعاه الى ضرب الهياج ومناطقه • فلما

وقعت الهزيمة ، هرع الشيوخ الى القـادة الفرنسـيين يعتذرون اليهم ويطلبون منهم السماح ٠

وان أى شخص في مصر ، مصرى أو غير مصرى ، لتتكرر معه هذه الصورة نفسها ، اذ ينقلب عليه الناس ان استشعروا فيه ضعفا أو زوال منصب أو ضياع مال، فان عاد قويا الى وضعه الأول ، بادروا بالاعتذار وطلب السماح ٠ فهل لهذا التقلب فى التعـامل اسـم غـير النفاق ؟ وهل زال من مصر هـذا النفـاق ، أم انه داء متمكن يجرى فى الدماء ويسـيل مع كل شربة ماء ؟! ويأخذ صورا متعددة ، بل وتبرره الأمثال الشعبية التى تعتبر أفضل تشخيص اجتماعى **Social Identification** فتقول : الايد (اليد) اللى ما تقدرشى تقطعها بوسها ٠ اللى يتجـوز أمى أقول له يا عمى ٠ ان كنت فى قوم بيعبدوا عجل حش واديله ٠ فى الوش مراية وفى القفا سلاية ٠

فهل فى هذا النفاق الضارب ، وفى أرض النفاق (وهو عنوان رواية وفيلم مصريين) يمكن أن يأمن أحد الى مشاعر وفاء ، أو يركن شخص الى مظاهر ولاء ؟

(ز) ويقول الجبرتى انه اثر « الهيجان » الثانى، وبعد أن قضى عليه الجيش الفرنسى ، ثم أعطو الناس

آدانا . اجتمع قائد الجيش بالمشايخ فى اليوم التالى ، فوبخهم واتهمهم بالرياء والنفاق ، وأنهم يظهروا غير ما يبطنون (تقية !!) ، كما أنه لا نفع منهم ولا جدوى فيهم ، ثم فرض عليهم غرامات مالية • فاذا بهم ينهارون ويتمنون لو لم يكونوا شيئا (أى تمنوا العدم) وبال بعضهم على ثيابه •

أفليست هذه صورة حية ، واضحة ظاهرة . كائنة قائمة ، حتى الآن ، استئساد واستقواء فى حال . ثم استنعاج واستضعاف فى انحال المخالف ، بغير أى ثبات فى الخلق أو وضوح فى التصرف !؟

(ح) وينقل الجبرتى نص كتاب أرسله الشيخ السادات (أحد كبار المشايخ) الى الوزير العثمانى ، وفيه يقول (السادات) انه نقض عهده مع الفرنسيين ، مع أنه سليل النبوة ، وأطاع العثمانيين فى فجرهم وأعانهم على ظلمهم ، حتى جاهد جنودهم فى الملاهى وأماكن الموبقات ، واستولوا على أموال الناس وطعامهم •

فكيف يمكن أن يعين أحد كبار القوم ظالمين على ظلمهم ويساعد فاسقين على فسقهم ، وهو يعلم ذلك ،

ويعرف أنه ينقض عهدا ينبغى ان يحفظه ؟ أليس هـذا الذى حدث من الشيخ السادات سلوكا عاما ووضعا ممتدا قائما حتى الآن ؟! فقلما يفى واعد بوعده ، أو ينفذ عاقد ما تعاقد عليه ، حتى لتعتبر الوعود لغـو حديث، وتعد العقود حبرا على ورق • ومن جانب آخر، فان الطغاة والظالمين والمفسدين ــ حتى الآن ــ يجدون من يبرر لهم طغيانهم أو يساعدهم على الظلم أو يعينهم على الفساد وهو يعلم حقيقة ما يفعل ، لكنها المداهنة والرغبة في نوال حظوة لدى المستبدين ، تعمى البصائر وتغشى الضمائر !

• (ط) ويقـول الجبرتى ان عسكر العثمانيين (الأرناؤوط والتتار وغيرهم) احتكروا البضائع لأنفسهم ، وصاروا يبيعونها الى الناس بأغلى الأثمان هذا فضلا عن أنهم ، ورؤساهم ، كانوا يشاركون التجار والحرفيين فى أعمالهم • وهذا الذى حدث منذ قرنين مازال يحدث حتى اليوم ، فكثير ما يحتكر بعض مراكز القوى ومحاور السلطة وقوعد النفـوذ أقوات النـاس وحاجاتهم ، وان تخفوا تحت اسم آخر ، ثم يبيعوها الى الناس بما يشاءون من أسعار • هذا فضلا عن أن نظام مشاركة السلطة للتجار والحرفيين هو أساس الاقطاع

الادارى ، والتزاوج بين السلطة والأعمال (الشغل أى البزينيس Buisiness الذى صار شبه قاعدة عامة فى كثير من النظم فى البلاد العربية كافة ٠

(ى) ويصف الجبرتى بمرارة شديدة متاعب الناس مع رجال السلطة للحصول على تأشيرة أو خاتم ، مما يقتضيهم دفع كثير من الرشاوى ، أو ترك مصالحهم نهائيا ليأسهم من الوصول الى العدل والحصول على الحق ٠ وهو وصف لا يحتاج الى أى تعليق ، لأنه حال قائم مستمر يعرفه المصريون جميعا ، ويشكون من الشكوى من الروتين والرشاوى وتعطيل الأعمال ٠

ثم ماذا ؟ ان فى مأثوراتنا أن الاعتراف بالحق فضيلة ، وأن الحق أحق أن يتبع ، لكننا مع ذلك لا نحب أن نستمع الى الحق ، أو أن نتبع سبيله ، وانما نقول شيئا ونفعل شيئا آخر ٠ فالقول لدينا منفصل عن العمل تماما ، وبين القول والعمل فصل كبير وبئر عميق ، وهذا فى التقدير السليم أول وأهم سوالبنا ، التى ينبغى أن نلتفت اليها وأن نتغلب عليها ٠ فالمثالب الاجتماعية والسوالب الأخلاقية كالأدواء الجسمية والأمراض البدنية ، اذا ما تم تشخيصها بعلم وأمانة ، وتوصيفها بدقة وصراحة ، أمكن تخطيها بشجاعة

ووضوح • أما ان لم يحـدث ذلك ، فسـوف تظل أبد الدهر . وهى أدواء متمكنـة ، وأمـراض متوطنـة ، واعراض متزمنة •

فى ثقافتنا وتراثنا ايجابيات بغير شك ، لكن كثرة ترديدها والالحاح عليها يغضى عن الصواب ويعمى عن الحقيقة • ومن الأصح والأسلم أن نعيد فرز عناصر ثقافتنا ، بوعى وعلم حتى نسـتبقى الصـائب منهـا ونستبعد السالب فيها • مثل هذا العمل يقتضى الصدق ويلتزم الأمانة ، والا أفلت منـا زمام أنفسـنا وقياد بلادنا •

لقـد كانت الحملة الفرنسـية بالأمس صـدمة حضارية ونحن اليوم فى غربة حضارية ، لكنا فى الغد سوف نواجه صعقة حضارية ، ما لم نتهيأ بالاصـلاح والاستعداد ، الذى ينبغى أن يبدأ بالصدق فى القول والصدق فى العمل ، أى بالأخلاق والضمائر ، ثم يختط سبيله بالعلم والتقنية •

من يتـابع المجـلات العلمية العالميـة ، والبرامج العلمية فى القنوات الفضائية الدولية (مثـل برنامج (Sience and Technology فى قناة E.N.N ، وبرنامج 2000 فى قناة Euro news ، وبرنامج Future File

فى قناة CNBC وغيرها) لابد أن يدهش ويذهل من كثرة الاكتشافات التقنية وتنوعها ، وانتشارها . وهى اكتشافات لا يشترك فيها العرب ولا يسهم المصريون (الا نادرا) • وبعد فترة قليلة ، عشر سنوات على الأكثر ، سوف نفاجأ بأن العالم كله فى الغرب الأدنى والأقصى ، وفى الشرق الأقصى كله ، يتكلم لغة لا نعرفها ولا نفهمها ولا نستطيع التعامل بها ، هى لغة العلم الجديد ولغة التقنية الحديثة • وعند ذلك سوف نلوم كل الناس الا أنفسنا ، ما دمنا لم نغير ما فى نفوسنا من عيوب ولم نبدل ما فى ثقافتنا من عوار • لكن العالم كله سوف يلتفت عنا ويعرض عن صراخنا تماما •• ونكون بذلك مثل النعامة تضع رأسها فى الرمال حتى لا ترى الحقيقة ، الى أن تتمكن منها الحقيقة ، وتصيبها ثم تقضى عليها ، بالصعقة الحضارية •

الفهـــــرس



صدر في هذه السلسلة :

١ ـ مصطفى كامل فى محكمة التاريخ ·
د· عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٢ ـ على ماهـر ·
رشوان محمود جاب الله ، ١٩٨٧

٣ ـ ثورة يوليو والطبقة العاملة :
عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٨٧

٤ ـ التيارات الفكرية في مصر المعاصرة ·
د· محمد نعمان جلال ، ١٩٨٧

٥ ـ غارات أوروبا على الشواطىء المصرية فى العصور الوسطى ·
علية عبد السميع الجنزورى ، ١٩٨٧

٦ ـ هؤلاء الرجال من مصر ، ج ١ ·
لمعى المطيعى ، ١٩٨٧

٧ ـ صلاح الدين الأيوبى ·
د· عبد المنعم ماجد ، ١٩٨٧

٨ ـ رؤية الجبرتى لأزمة الحياة الفكرية ·
د· على بركات ، ١٩٨٧

٩ ـ صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل ·
د· محمد أنيس ، ١٩٨٧

١٠ ـ توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية ·
محمود فوزى ، ١٩٨٧

١١ ـ مائة شخصية مصرية وشخصية •
شكرى الماضى ، ١٩٨٧

١٢ ـ هدى شعراوى وعصر التنوير •
د• نبيل راغب ، ١٩٨٨

١٣ ـ أكذوبة الاستعمار المصرى للسودان : رؤية تاريخية •
د• عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٨ ، ط ٢ ، ١٩٩٤

١٤ ـ مصر فى عصر الولاة ، من الفتح العربى الى قيام الدوله الطولونيــة •
د• سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٨

١٥ ـ المستشرقون والتاريخ الاسلامى •
د• على حسنى الخربوطلى ، ١٩٨٨

١٦ ـ فصول من تاريخ حركة الاصلاح الاجتماعى فى مصر : دراسه عن دور الجمعية الخيرية (١٨٩٢ ـ ١٩٥٢) •
د• حلمى أحمد شلبى ، ١٩٨٨

١٧ ـ القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى •
د• محمد نور فرحات ، ١٩٨٨

١٨ ـ الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية •
د• على السيد محمود ، ١٩٨٨

١٩ ـ مصر القديمة وقصة توحيد القطرين •
د• أحمد محمود صابون ، ١٩٨٨

٢٠ ـ دراســات فى وثائق ثورة ١٩١٩ : المراســلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى •
د• محمد أنيس ، ط ٢ ، ١٩٨٨

٢١ ـ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ، ج ١ •
د• توفيق الطويل ، ١٩٨٨

٢٢ ـ نظرات فى تاريخ مصر •
جمال بدوى ، ١٩٨٨

٢٣ ـ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ج ٢ ، أمام التصوف فى مصر : الشعرانى •
د• توفيق الطويل ، ١٩٨٨

٢٤ ـ الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ ـ ١٩٣٦) •
د• نجوى كامل • ١٩٨٩

٢٥ ـ المجتمع الاســـلامى والغرب ،
تأليف : هاملتون جب وهارولد بووين ، ترجمة : د• أحمد عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٨٩

٢٦ ـ تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة ،
د• سعيد اسماعيل على ، ١٩٨٩

٢٧ ـ فتح العرب لمصر ، ج ١ ،
تأليف : ألفريد ج • بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد ١٩٨٩

٢٨ ـ فتح العرب لمصر ، ج ٢ •
تأليف : ألفريد ج • بتلر ، ترجمة : محمد فريد أبو حديد ١٩٨٩

٢٩ ـ مصر فى عصر الاخشيديين ،
د• سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٩

٣٠ ـ الموظفون فى مصر فى عصر محمد على ،
د• حلمى أحمد شلبى ، ١٩٨٩

٣١ ـ خمسون شخصية مصرية وشخصية ،
شـــكرى القاضى ، ١٩٨٩

٣٢ ـ هؤلاء الرجال من مصر ، ج ٢ ،
لمعي المطيعي ، ١٩٨٩

٣٣ ـ مصر وقضايا الجنوب الأفريقي : نظرة على الأوضـــاع الراهنة ورؤية مستقبلية ،
د. خالد محمود الكومي ، ١٩٨٩ .

٣٤ ـ تاريخ العلاقات المصرية المغربية ، منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام ١٩١٢ ،
د. يونان لبيب رزق ، محمد مزين ، ١٩٩٠

٣٥ ـ أعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة ،
عبد الحميد توفيق زكي ، ١٩٩٠

٣٦ ـ المجتمع الاسلامي والغرب ، ج ٢ ،
تأليف : هاملتون بووين : ترجمة : د. أحمد عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٩٠

٣٧ ـ الشيخ علي يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية في ربع قرن ،
د. سليمان صالح ، ١٩٩٠

٣٨ ـ فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني ،
د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، ١٩٩٠ .

٣٩ ـ قصة احتلال محمد علي لليونان (١٨٢٤ ـ ١٨٢٧) ،
د. جميل عبيد ، ١٩٩٠

٤٠ ـ الأسلحة الفاسدة ودورها في حرب فلسطين ١٩٤٨ ،
د. عبد المنعم الدسوقي الجميعي ، ١٩٩٠

٤١ ـ محمد فريد : الموقف والمأساة ، رؤية عصرية ،
د. رفعت السعيد ، ١٩٩١

٤٢ ـ تكوين مصر عبر العصور ،
محمد شفيق غربال ، ط ٢ ، ١٩٩٠

٤٣ ـ رحلة فى عقول مصرية ،
ابراهيم عبد العزيز ، ١٩٩٠

٤٤ ـ الأوقاف والحياة الاقتصادية فى مصر فى العصر العثمانى ،
د. محمد عفيفى ، ١٩٩١

٤٥ ـ الحروب الصليبية ، ج ١ ،
تأليف : وليم الصورى ، ترجمة وتقديم : د. حسن حبشى ، ١٩٩١

٤٦ ـ تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية (١٩٣٩ ـ ١٩٥٧) ،
ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩١

٤٧ ـ تاريخ القضاء المصرى الحديث ،
د. لطيفة محمد سالم ، ١٩٩١

٤٨ ـ الفلاح المصرى بين العصر القبطى والعصر الاسلامى .
د. زبيدة عطا ، ١٩٩١

٤٩ ـ العلاقات المصرية الاسرائيلية (١٩٤٨ ـ ١٩٧٩) ،
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢

٥٠ ـ الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ ـ ١٩٥٤) .
د. سهير اسكندر ، ١٩٩٣

٥١ ـ تاريخ المدارس فى مصر الاسلامية ،
(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة ، فى ابريل ١٩٩١) أعدها للنشر : د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢

٥٢ ـ **مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين ، فى القرن الثامن عشر ،**
د٠ الهام محمد على ذهنى ، ١٩٩٢

٥٣ ـ **اربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة ،**
د٠ محمد كمال الدين عز الدين على ، ١٩٩٢

٥٤ ـ **الأقباط فى مصر فى العصر العثمانى ،**
د٠ محمد عفيفى ، ١٩٩٢

٥٥ ـ **الحروب الصليبية ج ٢ ،**
تأليف : وليم الصـــورى ، ترجمة وتعليـق : د٠ حسن حبشى ، ١٩٩٢

٥٦ ـ **المجتمع الريفى فى عصر محمد على : دراســـة عن اقليم المنوفيــة ،**
د٠ حلمى أحمد شلبى : ١٩٩٢

٥٧ ـ **مصر الاسلامية وأهل الذمة ،**
د٠ سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٩٢

٥٨ ـ **أحمد حلمى سجين الحرية والصحافة ،**
د٠ ابراهيم عبد الله المسلمى ، ١٩٩٣

٥٩ ـ **الرأســمالية الصناعية فى مصر ، من التمصير الى التأميم (١٩٥٧ ـ ١٩٦١) ،**
د٠ عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٩٣

٦٠ ـ **المعاصرون من رواد الموسيقى العربية ،**
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٣

٦١ ـ **تاريخ الاسكندرية فى العصر الحديث ،**
د٠ عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣

٦٢ ـ **هؤلاء الرجال من مصر ج ٣ ،**
لمعى المطيعى ، ١٩٩٣

٦٣ ـ **موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر الاسلامية ،**
تأليف : د٠ سيدة اسماعيل كاشف ، جمال الدين سرور ٠
وسعيد عبد الفتاح عاشور ، أعدها للنشر : د٠ عبد العظيم
رمضان ، ١٩٩٣ ٠

٦٤ ـ **مصر وحقوق الانســـان ، بين الحقيقة والافتراء دراســة وثائقية ،**
د٠ محمد نعمان جلال ، ١٩٩٣

٦٥ ـ **موقف الصحافة المصرية من الصهيونية (١٨٩٧ ـ ١٩١٧)**
سهام نصـــار ، ١٩٩٣

٦٦ ـ **المرأة فى مصر فى العصر الفاطمى**
د٠ نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٣

٦٧ ـ **مساعى السلام العربية الاسرائيلية : الأصول التاريخية ،**
(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس
الأعلى للثقافة ، بالاشتراك مع قسم التاريخ بكلية البنات
جامعة عين شمس ، فى ابريل ١٩٩٣) أعدهـا للنشر
د٠ عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣

٦٨ ـ **الحروب الصليبية ، ج ٣ ،**
تأليـف : وليم الصـــورى ، ترجمة وتعليـق : د٠ حسن
حبشى ، ١٩٩٣

٦٩ ـ **نبوية موسى ودورها فى الحياة المصرية (١٨٨٦ ـ ١٩٥١**
د٠ محمد أبو الاسعاد ، ١٩٩٤

٧٠ ـ **اهل الذمة فى الاســـلام ،**
تأليف : أ٠ س٠ ترتون ، ترجمة وتعلبق : د٠ حسن حبشى،
ط ٢ ، ١٩٩٤

٧١ ـ **مذكرات اللورد كليرن (١٩٣٤ ـ ١٩٤٦) ،**
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة : د٠ عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩٤

٧٢ ـ **رؤية الرحالة المسلمين للاحوال المالية والاقتصـادية لمصر فى العصر الفاطمى (٣٥٨ ـ ٥٦٧ هـ) ،**
أمينة أحمد امام ، ١٩٩٤

٧٣ ـ **تاريخ جامعة القاهرة ،**
د٠ رؤوف عباس حامد ، ١٩٩٤

٧٤ ـ **تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، ج ١ ، فى العصر الفرعونى**
د٠ سمير يحيى الجمال ، ١٩٩٤

٧٥ ـ **أهل الذمة في مصر ، فى العصر الفاطمى الأول ،**
د٠ سلام شافعى محمود ، ١٩٩٥

٧٦ ـ **دور التعليم المصرى فى النضال الوطنى (زمن الاحتـلال البريطانى) ،**
د٠ سعيد اسماعيل على ، ١٩٩٥

٧٧ ـ **الحروب الصليبية ، ج ٤ ،**
تأليف : وليم الصـورى ، ترجمة وتعليق : د٠ حسن حبشى ، ١٩٩٤

٧٨ ـ **تاريخ الصحافة السكندرية (١٨٧٣ ـ ١٨٩٩) ،**
نعمات أحمد عتمان ، ١٩٩٥

٧٩ ـ **تاريخ الطرق الصوفية فى مصر ، فى القرن التاسع عشر ،**
تأليف : فريد دى يونـج ، ترجمة : عبد الحميـد فهمى الجمال ، ١٩٩٥

٨٠ ـ **قنـاة السـويس والتنافس الاسـتعمار الأوربى (١٨٨٢ ـ ١٩٠٤) ،**
د٠ السيد حسين جلال ، ١٩٩٥

٨١ ـ **تاريخ السياسة والصحافة المصرية ، من هزيمة يونيو الى نصر أكتوبر ،**
د. رمزى ميخائيل ، ١٩٩٥

٨٢ ـ **مصر فى فجر الاسلام ، من الفتح العربى الى قيام الدولة الطولونيــة ،**
د. سيدة اسماعيل كاشف ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٨٣ ـ **مذكراتي فى نصف قرن ، ج ١ ،**
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٨٤ ـ **مذكراتي فى نصف قرن ، ج ٢ ، القسم الأول ،**
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٥

٨٥ ـ **تاريخ الاذاعة المصرية : دراسة تاريخية (١٩٣٤ ـ ١٩٥٢) ،**
د. حلمى أحمد شلبى ، ١٩٩٥

٨٦ ـ **تاريخ التجـارة المصرية فى عصر الحرية الاقتصـــــادية (١٨٤٠ ـ ١٩١٤) ،**
د. أحمد الشربينى ، ١٩٩٥

٨٧ ـ **مذكـرات اللورد كليرن ، ج ٢ ، (١٩٣٤ ـ ١٩٤٦) ،**
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة وتحقيق : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩٥

٨٨ ـ **التذوق الموسيقى وتاريخ الموسيقى المصرية ،**
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٥

٨٩ ـ **تاريخ الموانىء المصرية فى العصر العثمانى ،**
د. عبد الحميد حامد سليمان ، ١٩٩٥

٩٠ ـ **معاملة غير المسلمين فى الدولة الاسلامية ،**
د. نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٦

٩١ ـ تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط ،
تأليف : بيتر مانسفيلد ، ترجمة : عبد الحميد فهمي الجمال ، ١٩٩٦

٩٢ ـ الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ ـ ١٩٣٦) ج ٢ ،
نجوى كامل ، ١٩٩٦

٩٣ ـ قضايا عربية في البرلمان المصري (١٩٢٤ ـ ١٩٥٨) ،
د. نبيه بيومي عبد الله ، ١٩٩٦

٩٤ ـ الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ ـ ١٩٥٤) ، ج ٢ ،
د. سهير اسكندر ، ١٩٩٦

٩٥ ـ مصر وافريقيا .. الجذور التاريخية الأفريقية المعاصرة ،
(أبحاث الندوة التي أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة)
أعدها للنشر د. عبد العظيم رمضان

٩٦ ـ عبد الناصر والحرب العربية الباردة (١٩٥٨ ـ ١٩٧٠) ،
تأليف : مالكولوم كير ، ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو

٩٧ ـ العربان ودورهم في المجتمع المصري في النصف الأول من القرن التاسع عشر ،
د. ايمان محمد عبد المنعم عامر

٩٨ ـ هيكل والسياسة الأسبوعية ،
د. محمد سيد محمد

٩٩ ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية (العصر اليوناني ـ الروماني) ج ٢ ،
د. سمير يحيى الجمال

١٠٠ ـ موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر القديمة ،
أ٠ د٠ عبد العزيز صــــالح ، أ٠ د٠ جمال مختـــار ،
أ٠ د٠ محمد ابراهيم بكر ، أ٠ د٠ ابراهيــم نصــحي ،
أ٠ د٠ فاروق القاضي ، أعدها للنشر : أ٠ د٠ عبد العظيم رمضــــان

١٠١ ـ ثورة يوليو والحقيقة الغائبة ،
اللواء / مصطفى عبد المجيد نصــير ، اللواء / عبد الحميد كفافي ، اللواء/ سعد عبد الحفيظ ، السفير/ جمال منصور

١٠٢ ـ المقطم جريدة الاحتلال البريطاني في مصر ١٨٨٩ ـ ١٩٥٢ ،
د٠ تيسير أبو عرجة

١٠٣ ـ رؤية الجبرتي لبعض قضايا عصره ،
د٠ علي بركات

١٠٤ ـ تاريخ العمال الزراعيين في مصر (١٩١٤ ـ ١٩٥٢) ،
د٠ فاطمة علم الدين عبد الواحد

١٠٥ ـ السلطة السياسية في مصر وقضية الديمقراطية (١٨٠٥ ـ ١٩٨٧) ٠
د٠ أحمد فارس عبد المنعم

١٠٦ ـ الشيخ علي يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية في ربع قرن ، ج ٢ ،
د٠ سليمان صــــالح

١٠٧ ـ الأصولية الاسلامية في العصر الحديث ،
تاليف : دليب هيرو ، ترجمـة : عبد الحميد فهمي الجمال

١٠٨ ـ مصر للمصريين ، ج ٤ ،
سليم خليل النقاش

١٠٩ ـ مصر للمصريين ، ج ٥ ،
سليم خليل النقاش

١١٠ ـ مصادرة الأملاك فى الدولة الاسـلامية (عصر سلاطين المماليك) ، ج ١ ،
د. البيومى اسماعيل الشربينى
١١١ ـ مصادرة الأملاك فى الدولة الاسـلامية (عصر سلاطين المماليك ، ج ٢ ،
د. البيومى اسماعيل الشربينى
١١٢ ـ اسماعيل باشا صدقى ،
د. محمد محمد الجوادى
١١٣ ـ الزبير باشا ودوره في السودان (في عصر الحكم المصرى) ،
د. اسماعيل عز الدين
١١٤ ـ دراسات اجتماعية في تاريخ مصر ،
أحمد رشـدى صالح
١١٥ ـ مذكراتى في نصف قرن ، ج ٣ ،
أحمد شفيق باشا
١١٦ ـ أديب اسحق (عاشق الحرية) ،
عـلاء الدين وحيـد
١١٧ ـ تاريخ القضـاء في مصر العثمانية (١٥١٧ ـ ١٧٩٨) ،
عبد الرازق ابراهيم عيسى
١١٨ ـ النظم المالية فى مصر والشـام زمن سلاطين المماليك .
د. البيومى اسماعيل
١١٩ ـ النقابات فى مصر الرومانية ،
حسين محمد أحمد يوسف
١٢٠ ـ يوميات من التاريخ المصرى الحديث
لويس جرجس
١٢١ ـ معركة الجلاء ووحدة وادى النيل (١٩٤٥ ـ ١٩٥٤)
د. محمد عبد الحميد الحناوى

١٢٢ ـ مصر للمصريين ج ٦
سليم خليل النقاش
١٢٣ ـ السيد احمد البدوى
د. سعيد عبد الفتاح عاشور
١٢٤ ـ العلاقات المصرية الباكستانية فى نصف قرن
د. محمد نعمان جلال
١٢٥ ـ مصر للمصريين ج ٧
سليم خليل النقاش
١٢٦ ـ مصر للمصريين ج ٨
سليم خليل النقاش
١٢٧ ـ مقدمات الوحدة المصرية السورية (١٩٤٣ ـ ١٩٥٨)
ابراهيم محمد محمد ابراهيم
١٢٨ ـ معارك صحفية
جمال بدوى
١٢٩ ـ الدين العام (وأثره فى تطور الدين المصرى) (١٨٧٦ ـ ١٩٤٣)
د. يحيى محمد محمود
١٣٠ ـ تاريخ نقابات الفنانين فى مصر (١٩٨٧ ـ ١٩٩٧)
سمير فريد
١٣١ ـ الولايات المتحدة وثورة يوليو ١٩٥٢ (١٩٥٢ ـ ١٩٥٨)
تأليف جايل ماير ، ترجمة عبد الرءوف أحمد عمر
١٣٢ ـ دار المندوب السامى فى مصر ج ١ ،
د. ماجدة محمد حمود
١٣٣ ـ دار المندوب السامى فى مصر ج ٢ (١٩١٤ ـ ٢٤م
د. ماجدة محمد حمود

١٥٤ ـ هجمات الروم البحرية على شواطىء مصر الاسلامية فى العصور الوسطى
د· علية عبد السميع الجنزورى

١٥٥ ـ عصر محمد على ونهضة مصر فى القرن التاسع عشر ١٨٠٥ ـ ١٨٨٣
د· عبد الحميد البطريق

١٥٦ ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، الجزء الثالث فى العصر الاسلامى
د· سمير يحيى الجمال

١٥٧ ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، الجزء الرابع فى العصر الاسلامى والحديث
د· سمير يحيى الجمال

١٥٨ ـ نائب السلطنة المملوكية فى مصر (٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م)
د · محمد عبد الغنى الأشقر

١٥٩ ـ حزب الوفد (١٩٣٦ ـ ١٩٥٢ م) الجزء الأول
د· محمد فريد حشيش

١٦٠ ـ حزب الوفد (١٩٣٦ ـ ١٩٥٢ م) ج ٢
د· محمد فريد حشيش

١٦١ ـ السيف والنار فى السودان تأليف سلاطين باشا

١٦٢ ـ السياسة المصرية تجاه السودان
(١٩٣٦ ـ ١٩٥٣)
د ٠ تمام همام تمام

١٦٣ ـ مصر والحملة الفرنسية
المستشار/ محمد سعيد العشماوى

١٦٤ ـ الحدود المصرية السودانية عبر التاريخ
(أعمال ندوة لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الاعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة « ٢٠ ـ ٢١ ديسمبر ١٩٩٧ ») ٠

١٦٥ ـ التعليم والتغيير الاجتماعى فى مصر فى القرن التاسع عشر
سامى سليمان محمد السهام

١٦٦ ـ مذكرات معتقل سياسى
صفحة من تاريخ مصر
السيد يوسف

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٥١٠٩/١٩٩٩

ISBN — 977 — 01 — 5499 — 2



هذا الكتاب يحمل رؤية تاريخية للثورة الفرنسية أكثر مما يحمل تاريخاً للحملة الفرنسية، فالمستشار محمد سعيد العشماوى مفكر مصرى وليس مؤرخاً، وبالتالى فلا ينبغى للقارئ أن يتوقع قراءة كتاب تاريخ مما تعود أن يقرأه، بمعنى تحقيق تاريخى لأحداث الحملة الفرنسية على مصر، وإنما سيقرأ رؤية مفكر مصرى وتأملاته للحملة الفرنسية، وهو منهج مختلف للكتابة، ولكن له طلاوته وأهميته.

والكتاب بذلك يقدم تحليلاً ممتازاً للمجتمع المصرى بنظرة مفكر، وهو جدير بالقراءة.

٣٠٠ قرش

مطابع الهيئة المصرية ا